إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان

قصص قصيرة

جمال الغيطاني



دار المستقبل العربي

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..
بدر

إتحاف الزمان بحكاية جلي السلطان

تصميم الغلاف : الفنان بهجت عثمان

الطبعة الأولى

دار المستقبل العربي
للنشر والتوزيع

٤١ شارع بيروت ــ مصر الجديدة
ت : ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

كان الغلام عبد الرازق يجلس أمام دكانى ، كان يتيم الأب ، بل ان واحدا من أهل الخط لا يعْرف ولا يتذكر له أبا ، أما أمه فأمرأة ضائعة تسوس الخيل ، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب وبدون سبب ، غير أن عبد الرازق كان صغير السن ، هادىء الطبع ، يحبه الزبائن لرقة خلقه ، وخفة يده ، ومهارته ، ولم أسمعه فى حياتى يزعق لانسان ، وحببنى هذا فيه فسمحت له بالجلوس أمام دكانى .. واذا ما طفش المماليك فى السوق كنت آويه فى زمامى ، وقد توافدت عليه خدام القلعة ، والبيوت الكبيرة .. بل أن محمد المهتار يرسل فى طلبه فيروح عنده يحلق له ، حتى جاء يوم علت شمسه ، وكثر حره ، وتعاظم غباره ، فكأنه غضب من الله رب العالمين ، على عباده الظالمين ، بدا المهتار فى أول الطريق ، راكبا بغلته ، فصار الخلق يتساءلون عن وجهته ، وحقيقة مقصده ، وعندما حط ركبه أمام دكانى .. انخلع قلبى ، وأرسل جيرانى التجار يطلبون حامي الحسينية ليدفع عنا ما قد يقع علينا ، فى هذا اليوم لم يحلق عبد الرازق الا لرجل أو اثنين مما جعل رأسه يغفو ويقع على صدره ، وعندما رأينا المهتار يشير اليه ، ترحمنا عليه ، ورحنا نخمن ما سيجرى له ، أمره المهتار بلم عدته ، هنا أنكرش نفس الغلام ولم يعد يدرى يمينه من شماله ، فكأنه والعياذ بالله قد أدرك يوم القيامة من دوننا ، ولم نستطع ان نهون عليه ، ولم يحس بنا .. ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحمون عليه ، ويأسفون على شبابه .. أما شيخ الحرفة فأخبرنى فى وقار .. انه لو عاش لبقى له مستقبل عظيم .. ولصار مزينا صاحب محل ، يجلس عنده الزبائن ، ويضع على صدورهم الفوط المنقوشة ، وقد جاءت أمه مسرعة ، حولها نسوة ينحن ويصرخن .. ولما زادت عن الحد ، خرجت وأمرتها بالنهى عن هذا ..

أما سبب ذلك ، فانه كان لمولانا الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى أعز الله به الاسلام ، آمين ، لحية تحيط وجهه بمهابة يرتاع لها أصحاب القلوب الجامدة ، وقد قام على حلاقتها جلبى خاص عرف بأسم علم الدين ، وكان الجلبى ذا هيبة وسطوة ، اذ ينزل من القلعة تمشى بين يديه الغلمان ، يركب بغلة عالية ، فوق كتفه فوطة حرير كشمير ، وهذا شرف لا يناله الانسان كأى شيء كان فى ذاك الأوان ، غير ان الدنيا غرور لا تستقر على حال ، فقد حدث أن أشار الأمير شاربك الأعور الى لحية مولانا ، قال انها لم تعد تبدو كما يجب ، فانزعج مولانا انزعاجاً شنيعاً ، وصار يتأملها ، وبيده يتحسسها ، وبأصابعه يتخللها ، وسرعان ماركبه الهم ، وتدفق الى رأسه وخلف عينيه الدم ، فض مجلسه ، وقام الى غرفته وأرسل فى طلب علم الدين ، فأحضروه مشكوكا فى الحديد وصاح فيه ، تفعل ما فعلت بلحيتى ؟! وبعد أن بهدلوه آخر بهدلة أمر مولانا فقطعت رأسه .. غير أن الأيام توالت ، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من يهذبها ، وعرضوا عليه عدة حلاقين ، فلم يعجبه أحد ، حتى دخل عليه محمد المهتار ، وقال إنه يعرف جلبى صغير ، فقير ، ناحية الحسينية .. يدعى عبد الرازق ، لكنه يحلق مليحا ، فقال مولانا : لا تمانع .. أحضرو لنا حتى نجربه ..

* * *

انقض علىّ الخدم ، فغسلونى ، وعرشونى باللوف العظيم ، أبدوا تقززا وقرفا ، غير أنى لم أبال ، فقد كنت مشغولا بما جرى لى ، وما قاله محمد المهتار ونحن فى الطريق ، السعد والجاه بين يديك ، وطلوع نجمك أو انخسافه أمام عينيك ، والمطلوب منى بسيط ويسير . وهو أن أتقن الحلاقة الأولى اتقانا عظيما ، عندئذ من يدرى ، ربما أعطانى مائة دينار ، أو .. أو .. مائتين .. طلعت الى قاعة صغيرة ، رخامها يسطع ، وستائرها تلمع ، فى الأركان الأربعة يقف حراس يحملقون الى ، رحت ، ثم جئت ، ثم نظرت من الطاقة الضيقة ، وجف قلبى ، الفراغ فسيح لا أول له ولا آخر ، وتحت كانت البيوت والمآذن ، والغبار ، والصيف عامل عمله ، البلدة كلها ملقاة تحت ، والغريب اننى شغلت نفسى ،

محاولا أن أحدد فى أى المواقع أسكن .. ؟ وكيف تبدو القلعة كرسى السلطنة . عندما أنظر اليها من بين الحوارى ، سمعت صوتا ينادينى ، التفت فاذا به محمد المهتار ، قال : تجهّز .

* * *

غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة نفذت الى مرارته فى اليوم التالى ، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم عبد الرازق ليملأ وظيفة الجلبى ، الى جانب الخلع عليه بفروة سمور .. وفوطة حرير كشمير ، وبالفعل .. فقد صرف له رئيس الديوان بغلا عاليا ، عليه كنبوش لونه أصفر ، تتدلى منه شراشيب ، وأيضا وسائد ، وحشايا ، وستائر ، ودواة ، وعشرون ذراع حرير شاهانى لا يوجد مثيله ، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من الدهشة ، وكأن عبد الرازق أدرك ما يجول فى خاطره فابتسم ابتسامة هادئة حيرت الرجل وأسكتته ، وجعلته يناجى نفسه ، فمن بعد الحلاقة للعوام والجعيدية والعبيد وأوباش الخلق ، وامتلاء حجره بالقمل يصير جلبيا للسلطان ؟ وهكذا ينال مالم ينله الرجل طوال عمره ، وعندما أخبرو عبد الرازق انه مسافر مع السلطان الى الفيوم .. تعاظمت حسرته ، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم ينله شرف كهذا ، أما عبد الرازق فها هو يمضى مع الحاشية ، وربما سئم مولانا فدعاه الى مسامرته ، وربما أعجبه فيصير من خاصته ، عندئذ يلجأ اليه ، ويقف عند بابه ليقضى له حاجة ، ويكون فى نظره انسانا حقيرا ضائعا لا قيمة له ، من بعد أن كان لا يجرؤ لعبد الرازق الحلم فى أن يحلق له ، برقت عيناه وهو يرتدى الخلعة الفرو السمور ، وكاد الرجل أن يصيح غيظا لما أبداه عبد الرازق من هدوء وكأنه تعود على هذا ، غير أن رئيس الديوان هنأه فى صوت خفيض .

* * *

« .. عندما تمهل الموكب أمام متجر العطار .. بدا مامر من أيام بعيدا

قاصيا ، بل أنني — ساءلت نفسي . هل نوديت يوما بالغلام عبد الرازق ، وهل هذا الرصيف أكل حتتا من لحمي طوال جلوسي فوقه ، وهل حقا مر في يوم فرحت فيه فرحا مهولا لأن واحدا من خدام القلعة حلق عندي ، واذا جاءني تاجر صبغة ، أو عطار ، أو حمال ، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادما من خدام القلعة حلق عندي قبله .. راح زمن من عمري في هذا .. وعندما تحرك الركب مرة ثانية ، ارتفعت الأصوات بالدعاء ، أهل الشارع لم يعرفوني ، فعمامتي عالية .. وخلعة مولاي الحمراء تبرق على كتفي ، ومن أين لهم أن يعرفوني ؟ ، وفجأة ارتعبت ، أفق ياعبد الرازق ياجلبي ، ربما أنت في حلم ، لكن استغفرك ربي ، هل جرؤت يوما على الحلم بمثل هذا ، في السكة الى الفيوم ، كانت محفة السلطان تحط كثيرا ، أجلس بجوار رجاله ، الأمير الداودار الكبير ، بيني وبينه مقدار ذراع واحدة ، التزمت الصمت حتى لا أتفوه بلفظ قد يقع من قلوبهم موقعا غير حسن خاصة أن كلهم يعرفون اصلي ، بل اني حافظت على سكناتي وحركاتي تمنيت لو أن لي عينين أرى بهما نفسي من الخارج،أرقب أفعالي وهل هي لائقة أم غير لائقة ، بل أخرجت أنفاسي حذرا لئلا تزعجهم ، تطلعت الى أرباب المملكة وحملة السيف ، وفرسان الاسلام ، أحاول التعرف عليهم ، يقول مولانا مخاطبا هذا العجوز الأعور . ياشاربك ، أعرف أن هذا هو من يلقي الرعب في قلوب العامة ، ولو ذكر أسمه لسقطت الحامل اذ تسمعه . عندما يبدو موكبه ويسمع الناس انه أزمع الركوب والنزول من القلعة ليشق من المدينة ، يغلقون دكاكينهم ، يلمون حاجاتهم ، فهو قاس لا يرحم ، يحتكر بيع الخيار الشنبر . اذ وجدته رقيقا في نفسه ، يتكلم أمام سيدنا ومولانا بتواضع ان لم يكن مسكنة ومذلة ، حرت في أمره ، حتى كدت أقول انه غير ما نسمع عنه ، هل يتصور العامة ان شاربك أو شربة الأعور كما يسمونه يركع لمخلوق ؟ ، سخرت منهم ولعنتهم في نفسي ، من يدري ، ربما كان هذا الشيخ الرمال — ضارب الرمل — والجالس بجواري يقرأ فكري ويطلع على سري ، عندئذ يعرف انني ألعن السوقة لأنهم قالوا ماقالوه عن واحد من رجال مولانا . تعرفت أيضا الى الأمير ططق باي ، وقاضي

القضاة ، وهو شيخ مهيب ، ذقنه عظيمة يفوح منها المسك والعنبر ، والله أهالي الناحية بلهاء مجانين ، قاتل الله الضعة ، يتقولون على الصالحين .. شهور كاملة ظلوا يرددون فيها انه يرطل على السلطان برطيلا مهولا يقدر بعشرات الألوف من الدنانير حتى يعينه قاضيا للقضاة ، اعتدلت في جلستي ، وكلما مضى الزمن رأيت فيهم أناسا لطافا خفافا يتحدثون مثلي .. بل يمزحون ، يسخرون ، ويتناغشون . أوغل الليل والهواء لا يهش ولا ينش ، ولاحظت أن الأمير المقري نظر الىّ ، مرة أثر مرة ، خفضت نظري ، ضحك ، قال لمولاي بلسان فصيح : الجلبي ساكت "كالحجر" ، أليس عنده ما يبهج مولانا خاصة وأن الجلبية يعرفون من الحكايات مما لا أول له ولا آخر ؟ ، احاطتني العيون ، الآذان تنتظر ما أقوله ، ارتج عليّ ، غير أني تداركت نفسي ، قلت وعيناي تطرفان ، الأدب واجب في حضرة الملوك ، صاح أكثر من واحد : الله .. الله .. وفجأة مال سلطان المسلمين وحامي البيت ، ولاحظت أن لحيته تبدو أكثر مهابة وحسنا وجمالا عما رأيتها أول يوم ، وياللعجب صوته كأي صوت ، ونظراته ، سكناته وحركاته ، رحت أتملى وأسمع ، طاف خاطر خبيث بذهني طردته كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل ، كأني سمعت الصوت ، شيخ عجوز يبيع البسبوسة تحت باب الفتوح اذ يراه القوم مقبلا .. يتزاحمون حوله ، يقف متشامخا في نفسه ، متعاظما في روحه ، يقول بصوت عال غليظ كأنه يقطر سمنة .. بالدور .. بالدور .. ارتعبت من المقارنة ، لعنت فكري ، الأيام التي رأيت فيها بائع البسبوسة ، غير أن ماقاله مولاي أنزل بردا وسلاما على قلبي ، غمر صدري راحة ، مليح .. مليح ، على من تلقيت علمك ياجلبي ؟ قلت بمنتهى الأدب : على يد أشهر المزينين في مصر ، المعلم الزيتوني رحمه الله وأحسن اليه ، ضج المجلس بالضحك ، انهمر العرق من رأسي وابطي وعنقي وسائر جسمي ، هل أخطأت ، أذنبت ، أي جرم ارتكبت ؟ غير أن قاضي القضاة قال : هذا علمه يامولانا . وعندما تكلم انحنى متوددا متأدبا ، وهذا بسبب ذكر اسمي .. « ياعالم هل رجل في مثل ورعه يبرطل على .. على من .. على السلطان ؟ » . أحنيت جسمي .. مليح .. مليح .. سألني عن أي

الأماكن كنت أسكن .. فأجبته اجابة شافية ، وسألنى عن حال الناس فى الخط ، ومايقولونه ويمضغونه من كلام ، وأشهر الحوادث التى كثر الحديث عنها .. ؟ فحكيت له عن المرأة التى ولدت طفلا له رأسان ، أبدى تعجبه ، استعاذ بالله .. قال كيف لم نر ذلك .. ؟ وراح يستفسر عن هيئة المخلوق وصفاته ومنظره .. ؟ وأنا أصف وصفا شافيا جامعا وكأنى رأيت الغلام بنفسى ، استعاذ بالله ، وقال الأمير شاربك انه سمع بمثل هذا فى الهند ، الليل فوقنا يوغل فى العتمة ، تثائب مولانا لأول مرة ورأيت أسنانه ، أغمض عينيه .. رأيت جفنيه غليظتين منتفختين ، فجأة فتحهما وقال : أنت جلبى مليح .. ابتل قلبى بماء الورد ، غرق صدرى فى روح النعناع ، قمت واقفا . قبلت الأرض بين يديه ، لم يمض الكثير حتى فض مولانا مجلسه ، انصرف الجمع كله ، أقبل على بعض الأمراء يهنئوننى ، السلطان قال عنى جلبى مليح،أثنوا على ، فى خيمتى لم أنم ، وبعد عودتنا اذا قابلت واحدا من الحاشية يوقفنى ويبارك لى ، قال السلطان أنت جلبى مليح ، وأخبرنى الشيخ أحمد ضارب الرمل ، هذا القول له مثيل واحد فى التاريخ ، امتدح المنصور قلاوون فى سالف العصور طعام خادمه ، وكثيرا مايقابلنى الأمير شاربك نفسه .. ألمح فى عينيه رغبة فى أن أحلق له ، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلبى السلطان ؟ لو أخبرت السلطان لأطاح برأسه ، من يدرى ، ربما يريد استمالتى اليه .. ثم يوزنى لأقطع رقبة مولانا عندما يسلمها لى وتصبح تحت رحمة موسى ، أرسلت فى طلب أمى ، فتحت ذراعيها وأرادت أن تضمنى فى أحضانها . قلت ياولية نحن الآن أصحاب جاه ، أهدئ .. هنا ستأكلين اللحم كل يوم ، وتلبسين الحرير والديباج ، بسطت كفيها ، دعت لى ، فى المساء رحت أرقبها وهى تأكل اللحم ، بعد أن صرفت الخدم ، حارت بين المقل والمحمر ، وأصناف المشموم والفواخيت .. تذكرت أيامى الأولى فى القلعة ، كيف اذا جاءنى الأكل لا أترك أثرا من فرخة أو قطعة من لحمة ، الخبز لم أقربه مدة طويلة ، ولما التوى بطنى عالجنى كبير الأطباء نفسه ، مرتبى من اللحم كبير ، لن يؤاخذنى أحد ، ساعات أقول أن الأكل يكفى حسين ومحمد عبد العزيز واسماعيل وسائر اصحابى فى الحسينية ، اذ أتذكرهم ينبعث فى نفسى

ضيق ، ماولى من أيام يبدو قريبا ، كأن السنين وجه له عينان كبيرتان تحملقان الىّ فى سخرية .. انسان موجود فى مكان لا أعلمه،يد ضخمة تمتد لتلحقنى وترمينى من كل هذا النعيم ، اذا ما رأتنى أمى تقول لى أعطاك الله وأعطاك .. تمتع ياولدى .. تمتع .. آن لى أن استريح ، مرة طلبت منى اكمال نصف دينى ، بسطت يدى ، من أين .. ؟ قالت انها تعرف بنتا مليحة وفقيرة ابنة سقاء ناحية سيدى البيومى ، ما أتكسبه لم يكن يقيم أودى ، ويسد رمقى ، واذا مارأيت امرأة فى الطريق الهث ، ويسيل ريقى ، لكنى أدوس هذا كله ، ولم أقرب امرأة قط .. »

وفى السوق تعلو نداءات الصبيان مشيرين الى النساء فوق المصاطب ، أنظر ياسيد ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل مااستطال موزة ، ولا كل ما أحمر لحمة ، ويتحسس عبد الرازق صدور البنات الصغيرات .. يتأكد من نفوره واستدارته ، كذا نعومة الجلد وتماسك الردف ، وعن لتاجر الرقيق التركى ان يسأله عن السر الذى يجعله يتخير الصغيرات دوما ، وكان قد استوثق من صحبة التاجر ، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام ، وقال عبد الرازق ، انهن يذكرنه بسنين تمنى لو ناغى فيها ، غير انه فى المرة الأخيرة انتابه غضب ، فقد تدافع حوله سفلة القوم ، وصاروا يقدمون له الرقاع ، والصحائف ، ليقضى بعض حاجاتهم .. راحوا يصيحون ، يزعقون ، وبأيديهم فى وجهه يلوحون ، مما حير التاجر التركى ، وأعجزه فهم ذلك .

* * *

« .. هدأتنى أمى ، قالت : أنت فى أعينهم صاحب ثروة وجاه ، عضضت شفتى ، ضممت يدى ، الى متى يلاحقونى ، عبد الرازق كان ثم .. عبد الرازق أصله و .. وماذنبى .. ؟ لأنى كنت واحدا من أهالى الخط ، أليس الله يعطى من يشاء ويحجب رزقه عمن يشاء .. ؟ تمنيت لو أن الطبيب عنده دواء ، أشربه

فأنسى مامر بى ، لا أسمع الا من يقول ، عبد الرازق ولد جلبيا للسلطان ، مقصه ، وموسه ، لم يلامسا غير شعر السلطان ، قمت أروح وأجىء ، أحنث ظهرى بيدى ، أتخلل لحيتى بأصابعى ، قالت أمى : لماذا لا تأخذ الحسينية فى حمايتك ؟ نظرت اليها ، قالت : ألم يكن علم الدين الجلبى السابق متحدثا عنها ، تعهد أنت أمام المحتسب عن الحسينية .. مقابل مايهديه من مال وتجمع من الخط ما تشاء ، وأهله كلهم تجار موسرون ، نظرت اليها مرة أخرى مضيقا عينى ، ستسدد ماعليك .. ثم تأخذ ما يفيض ، وأنت تعرف اهالى الخط كلهم ، وهكذا تصبح معهم وجها لوجه ، قلت : والله انها لفكرة .. لكن المحتسب لا يمنح الأحياء هكذا لابد من برطيل ، قالت معك ما يكفى أدفع له .. ثم يرجع لك كل ما أنفقت ، تلفحت بعباءتى ، تركت القلعة غارقة فى صهج الظهيرة .. ووهج الصيف الذى له لون التراب .. سألنى الساعى الى أين ؟ قلت الى متولى حسبة القاهرة ، قاضينا ، وشيخنا ، الزينى بركات بن موسى .

• • •

بدأ المنادى يقرع طبلته منذ تجاوزه باب الفتوح ، يا أهالى الحسينية ، صار علم الدين الرومى غريبا عن الخط ، وليس متحدثا عنه ، ولم يعد فى حمايته ، وعلى كل من لديه مظلمة أو شكوى ، كل من عليه مال متأخر للسلطان وعلى المتخاصمين وأرباب القضايا والمنازعات ، أن يتوجهوا فى كل حالهم ومآلهم الى حامى الخط ، والمتحدث عنه ، وحاميه أمام المحتسب وكرسى السلطنة ، المعلم عبد الرازق جلبى السلطان ، وشيخ الجلبية فى كافة أنحاء بر مصر ..

• • •

« .. أخبرنى الزكيدار أنه عندما شق فى الحسينية اسمعه التجار الكلام المنكى .. وصاروا يتقولون عليه ، اذا كان سيدك نسى أصله وفصله فنحن لا

نسى .. وتوعدوه ، وهاشوا عليه بعصيهم .. زاطوا عليه فى كلامهم ، أخذتنى رجفة ، أكل قلبى الغيظ ، ارتديت ثيابى ، تحلقت بعمامتى ، ركبت بغلتى ، سألنى الزكيدار عن المقصد ، الى الحسينية ، أبدى جزعا وفزعا ، لم أبال ، صحت فيه فجرى أمامى ، تجاوزت باب النصر ، طلعت على خياشيمى روائح الحى ، انقبض قلبى .. كأن غيرى عاش فيه ، ليس أنا ، مررت على دكان العطار ، رميت السلام .. قام واقفا ، اهتزت سبحته الطويلة .. سلم علىّ ، قدم الى مقعده ، تبسمت فى وجهه ، استغفر الله لم أنسك ياعم محمود ، ارتاح وجه الرجل ، هكذا ناس الحى ، سخطوا على ، ذكرونى بالكلام المنكى لأنى زدت درهما على محصول الدكان ، لكن بمجرد أن أواجههم ، أكاشفهم ، يخجلون ويتلعثمون ، أما لو واجهنى عالى الحس والصوت .. سأعرفه ، آمر رجالى أن يذهبوا به الى الجب ، أمام محل العطار راح الزكيدار يصيح فى السوق ، « حامى الخط والمتحدث عنه نزل بنفسه ليسمع ويرى حتى لا يدع الفرصة للمشوشين ، وألا يكون لواحد من العباد مظلمة » ، جاؤوا من الحارات والخوخ والأزقة فأنا أعرف كيف تسرى الاخبار هنا ، التفت الى محمود العطار ، الكلام لن يبدأ الا بعد زيارتى لسيدى البيومى ، اشتقت اليه ، حول الجامع رأيت كثيرا من الوجوه التى أعرفها ، هززت رأسى متلطفا ، بدوا فى دهشة عظيمة .. عليهم هيبة ، منذ طلوعى القلعة لم يرونى ، سألتهم عما بهم ، بعد صمت تعالت الأصوات فجأة ، صاح محمود العطار يطلب منهم الاحتشام ، واحترام المقام ، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا : أنت عارف يامعلم محمود . لقد زاد الفردة درهما وليس لنا طاقة على هذا .. صاحت عجوز ، رجالى طلبوا منها دفع أجرة دكانها مقدما ، هى لا تملك ماتدفعه ، سيطردونها غدا ، زعقت .. لن أرضى هذا ياعمة .. كم الايجار .. قالت نصف أشرفى ، ضربت يدى فى كيسى ، أعطيتها نصف الاشرفى ، ضجت المرأة بالدعاء ، التفت فجأة وصحت .. « الدرهم الزيادة لابد منه لأن المطلوب منى للمحتسب كثير ، لو ملكت المطلوب لشلت عنهم هذا كله ، زعقت .. هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية فى حمايتى ؟ » أطرقوا مقدار درجة ، قال شاب لا أذكره ، المماليك خطفوا شابة من

أمام محمد الخضرى .. ولا يعرف لها خبر ، التفت اليهم ، تكاثر الجمع ، تعاظم العدد ، صحت عليهم . « أعذرونى ياناس ، هؤلاء مماليك مولانا ماذا أقول لهم .. هل أنا عبد الرازق ابن الحسينية أقف قصادهم » . لزموا الصمت ، برغم هذا كله سأكلم الوالى ، وأعرف من هم بالضبط وأين راحوا بها ، ثم قلت : من عندكم خطفت امرأة واحد .. من الأحياء الأخرى هل تعرفون كم .. ؟ وكم من العمائم تنزع من فوق الرؤوس .. وكم من الغلمان المرد يطاردون ، كثير .. كثير .. كثير ياجماعة . انتم فى نعمة . سكتوا هنيهة .. وقالوا انهم يلاقون صعوبة عظمى فى مقابلتى ، عندئذ صحت ، أحضروا الى زين الدين الجزار ، وكان شابا عفيا قويا ، حسه طالع دائما فى الطريق ، يرهبه الكثير ، سلم على مترددا .. قلت : هل يعترض واحد على هذا ؟ سكتوا .. أنت من اليوم مسئول أمامى وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين ان توصل الى كل الشكاوى والمظالم ، اعذرونى .. كما تعرفون أنا جلبى السلطان ومولانا لا يخلو مجلسه منى ، بدا على وجوههم الرهبة ، زين الجزار مفتوح الفم ، لا يصدق ماسمعه ، اقترب منى الركبدار ، همس . قلت : لا تلومونى يا أهلى بعد قليل يصحو مولانا ولابد من طلوعى القلعة ، نزل الصمت ، اندفع أمامى زين الدين يفسح الطريق منافسا الركبدار نفسه ، امتطيت بغلتى،فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان ، ابتسمت ، تكاثف جميع النساء والحريم والغلمان أمام باب الفتوح ، استدار زين الدين ، زعق عليهم ، أن يرجعوا ، عاد يجرى بجوارى .. ضربت يدى فى كيسى ونفحته عشرة دنانير ليشترى لنفسه ثيابا تليق برجال ، أمرته ان يطلع القلعة فى الصباح لتكلم ، تركته منهولا ، سائر فتوات القاهرة يرهبونه ، وغدا يطلع عندى وأرتب معه الأمور كلها ، فلا أقلق فى صحو أو منام .

• • •

وكان الأمير كرتباى شديد الحنق على الأمير شاربك الأعور ، فالثانى أكثر قربا منه لدى السلطان ، وحصانه يلى حصان السلطان نفسه .. ورأى كرتباى أن

يتخلص منه .. ويرديه موارد التهلكة ، وبعد طول تفكير ، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجلبى ، فقد علا نجمه .. وسطع سعده ، وقرب وعده ، وصار السلطان يوكله فى كثير من الأمور يحل فيها ويربط ، حتى أن أرباب الحاجات ما قصدوا الا بابه .

• • •

« .. وقد أصغيت اليه ، العطر فى الهواء .. حلو ، النافورة ترمى ماءها الى أعلى ، لا صوت من الطريق عندنا ، وأعمدة الرخام السماق تقف باردة تحمل السقف المزخرف الجميل بحشو الخشب ، مما ليس له مثيل ولا فى القلعة ، عندما سألته عن هذا الشمعدان الرائع ، بدا مبهوتا ، فهو يحادثنى فى عظائم الأمور ، وأنا أبدى اهتمامى بشىء حقير الشأن ، ارتاع وخاف .. ربما ظن أننى سأبلغ شاربك عندئذ ينتكس وينتهى ، رفعت نظرى فوجدته شاخصا الى ، عندئذ قلت : فجأة ، ما الذى أنا له من هذا .. ؟ قال لك ماتطلب ، أعطيك من الدنانير والجوارى ماتشتهى ، ضحك ضحكة خفيفة ، فلم يلن وجهى ، قلت فى صوت خفيض ، أكون متوليا لحسبة القاهرة ، أصفر وجهه ، نزلت على عينيه حيرة ، قال هذا من السلطان ، أشرت بأصبعى ، ترسل أعوانك فيضطرب الحال فى السوق .. وتشيع عن الزينى ما يجعلك تطلع الى القلعة وتخبر السلطان أن حال المسلمين قد اضطرب وضاعت حقوقهم .. ولا مفر من عزل الزينى ، يسألك من يحل مكانه .. تقول لا يوجد غير الجلبى .. فالناس تلهج بذكره وطيب سيرته ، ولك أن تعلق جثة شاربك الأعور ثلاثة أيام كاملة على باب زويلة .

• • •

ونزل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجنين فى بطن أمه . تحيروا فى أمور الزمان ، كيف تلتف المشنقة حول عنق هذا الذى قارب ذا القرنين فى

جبروته وعنفوانه ، هاهو يعلق رأسه كأى اعرابى مارق ، أو لص سارق ، بينما يطوف المنادون فى أحياء القاهرة (المدينة) يصيحون على اللئيم الذى أعد ملعوبا خفيا ليخلع حامى الحرمين وسيد البحرين من فوق عرشه ، لكن اللئيم شاربك أُخذ قبل أن يأخذ .

* * *

« .. وقال ان الناس تحبنى وتثق فى ، والوالى لا يجد غيرى أتولى الحسبة ، وأضمن أموال السلطنة ، واستقر بأحوال الخلق ، قمت فقبلت الأرض بين يديه ، سالت دموعى ورجوته اعفائى فما أثقل المسئولية وما أفظع المهمة على قلبى ، ويكفينى القيام بواجبى بلا زيادة ولا نقصان ، فما الذى يطمح فيه انسان أكثر من كونه جليبا للسلطان ، هنا ضرب مولاى يديه ببعضهما .. قال : عجيب .. والله عجيب .. أنت أول من أعرض عليه منصبا فيمتنع ، وحولى يقتتلون ويتصارعون ، ياجليى .. أنت متولى الحسبة والمتحدث عنها أمامى ، فأنحنيت وقبلت الأرض ، لكن لى رجاء يامولاى .. قال ماهو ؟ قلت : ألا تحرمنى من كونى جليبا . »

* * *

ولهجت ألسنة الناس فى الحلات والأسواق ، ودعوا للمحتسب الجديد ، فقد نزل موكبه تدق أمامه الطبول ، وتنفخ الزمور ، وصار يقف بنفسه ويضع تسعيرة الأجبان .. والسنبوسك ، والبيض ، والخضروات ، وتحدث الناس فى البيوت عن رقة طبعه ، ولين خلقه .. وطول باله فى الاستماع الى الشكاوى حتى عندما صاح الرعاع عليه فى الحسينية ، واتكوا عليه بالكلام الناشف ، فقد ظل هادئا ، لا يرد على اهاناتهم ، ولو شاء لقطع رقابهم .

أخبرنى الأمير أبق أن المدينة لم تهدأ كما هى الآن ، شكرته ، اثنى على ومضى ، هكذا تحاشيت كل مشوش لئيم ، من عنده مظلمة فليقدمها الى نوابى ، لم أغلق أبوابى ، ما يهمهم ؟ ان مايهمون قوله وصل الى ، واذا بت فى مظلمة فالأمل لا ينتهى من عند مائة ، فى المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة ، الزندة على أشدها ، الجو به وخم ، السماء زرقاء . فالليل لم يوغل بعد ، زعق الحراس بالتحية ، رحت وجئت فوق السطح ، أرنو الى القباب والمآذن ، والغبار ، كل هذا أنا متحدث عنه ، قرضت طرف عباءتى ، سمعت حس رجل ورائى ، الأمير كرتباى الوالى .. سلم علىّ ، وقال إن حسن مسيرتى وسياستى جعلنا الكل راضيا عنى ، صحيح هناك بعض الموغرين يروحون اليه وينمون على .. سكت .. ثم قال : من ثم لك ثم عليك .. أومأت برأسى ولم أرد ، لعب الفأر فى عبى ، وراءه أمر ما ، بعد سكوت دام درجة ، قال : ان الجمع بين وظيفتى المحتسب والجليبى فيه ارهاق على ، الحسبة لها مشاغلها التى لاتعد ولاتحصى . ضيقت عينى ، أبطأت عليه فى الحديث .. قال لو أعفانى السلطان من وظيفتى كجليبى ، لكان هذا أحسن ، فصحت فجأة ، والله هذا ماكنت أفكر فيه ، أبدى بشرا وتهللا ، قال أطلب منه ذلك ، قلت سأفعل لتوى ، وبعد أن حلقت ذقن السلطان ، قلت أن الأمير كرتباى طلب منى كذا وكذا وأننى أشك فى مقاصده الجسام .. ضاقت عينا مولاى ، ارتخت جفونه ، علامة الغضب العظيم ، قال ماذا تظن ياجليبى ؟ قلت استعيذ بالله فلست تماما ، صاح على صيحة مهولة رجتنى فأنحنيت أقبل الأرض ، قلت لا تؤاخذنى مولاى ربما أرادوا ابعادى واحضار جليبى لا نعرفه ربما .. صاح السلطان .. لا تكمل ياجليبى .. امش ياجليبى ، فى المساء جاءنى قاصد يخبرنى ان كرتباى قطعوا رأسه فى الصباح ، وأن مولاى يطلبنى بعد العشاء لأمر خطير ، قلت سمعت وأطعت ، عندما أنصرف .. ذهبت الى أمى وقلت أتعرفين معنى هذا ؟ نظرت الى مذهولة ، دخلت غرفتى .. أرخيت الستائر ، انطلقت فى فرحة ، ضربت الجدار بيدى ، رميت ثيابى على الوسائد وصرت أدور فى الحجرة طالعا نازلا ، لا أدرى ماأفعله .. »

وقبل المغيب ، نزل أمير مقدم ألف من القلعة ، وعبر ميدان الرميلة فى موكب له ضجة ، واتجه الى بيت الأمير المقرى حيث يقيم قصاد ملك البنادقة . ينتظرون من عشرة أيام ، اللحظة التى تحين فيها مقابلة السلطان . وقد أركبهم الأمير ، وعاد بهم فى موكب عظيم ، وكان القصاد خمسة يرتدون الثياب الزاهية ، شعورهم طويلة كالحريم ، وجوههم حمراء ، وفى أثناء هذا كان الأمير يشبك البزددارى يتأمل السلطان برقة .. ويكثر من الدوران حوله ، ولحظ السلطان هذا ، فهو ذكى ، لا تفوته شاردة ولا واردة ، قال له ماذا بك يابزددارى ؟ قال لا تؤاخذنى يامولاى والله لا أجرؤ .. نتر مولانا فيه ، ارتجف الرجل فى ثيابه ، وأشار الى ذقن مولانا ، قال انها هائشة ، غير مرتبة ، ليست مليحة ، ولو رآها القصاد الأجانب لصارت فضيحة ، تحسسها مولانا وتخللها بأصابعه .. عجيب .. عجيب .. عبد الرازق حلقها لى منذ ساعة .. أرخى الأمير يشبك عينيه .. قال : يامولاى يد عبد الرازق تلمت وماعاد يفيق الى خدمتك . صاح السلطان .. كفى .. كفى .. صار صوته هادراً ! فيه غضب لو سلط على مدينة لقلب أعاليها أسافلها .. ارتعش الأمير يشبك ، وقبل الأرض . صاح السلطان .. لن أقابل قصاد البنادقة .

١٩٦٩

غريب الحديث فى الكلام عن على بن الكسيح

هذا مخطوط « غريب الحديث فى الكلام عن علّى بن الكسيح

« ويتضمن أخبار الشيخ على سنان الدين بن الكسيح ، صاحب الحدبة فى صدره ، والحدبة فى ظهره ، (برغم هذا كان وجهه مليحا ، حلو الصورة ، أشيب اللحية صغيرها) . وكان يرى دائما محمولا فوق ظهر غلام اسمه ركين ، لم يسمع له صوت ، ولم يفتح عينيه الا ليرى بهما الطريق ، قيل إن الأمير ملكتمر أعطاه له ، وملكتمر هو أول من أخذ من الشيخ على تدبما وعرفه طريق الأمراء ، اما العوام ، رجال ونساء ، فكلهم يعرفونه . كان باستطاعته دخول أى بيت أو دكان فى أى وقت ، ولو طلب ما شاء من أموال فلا يجد من يبخل عليه ، قيل فى سبب هذا انه الخوف منه ، لكنهم رددوا ايضا انه خير وبركة ، فقد لهجت الألسن كثيرا بمناقبه ومآثره ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وسبحانك ايها المنان الوهاب »

* * *

قال تعالى « .. ان ربك لبالمرصاد .. »

صدق الله العظيم

« على مايذكر المصلون فى جامع قلاوون ، انها المرة الأولى التى يجىء فيها الشيخ على هنا ، النهار كله يجول الأسواق ، يجلس عند التجار ، يمازح الناس ، انسال صوت الشيخ عحب مرتلا تواشيحه ، القلوب تخفق فى الصدور كأفراخ الحمام ، ضوء النهار به صفرة تقتم شيئا فشيئا ، بدا الشيخ على متأثرا ، مغمض العينين ،

لابد أن الله يقبل صلاته ، لا يقدر على ركوع أو سجود ، استغفر البعض ربه اذ تنبهوا لانفسهم يختلسون النظر الى الشيخ على ، من فيهما يقرأ الفاتحة ، من يبسمل ، هل بسملة الغلام تنوب عن بسملة الشيخ . قيل ان الشيخ على قد افتى فى هذا رجلا صالحا معمرا من الهند عارفا بالأصول ، وأجاز له هذا ، فجأة صاح صوته غليظ ، عظيم حتى لتحار ، أيصدر من جسمه الضئيل أم من غيره ؟ ياشيخ محب أشجانى والله صوتك ، همس الرجل الورع بخجل ، بارك الله فيك ، بدا وجه الشيخ على مستكينا هزيلا ترق له القلوب الجامدة ، كثيرون يدعونه عندهم ، يزور مرضاهم ، يكتب لهم الأحجبة ، وقيل ان التى لاتحمل لو رأت وجهه لحملت من ساعتها ، قال بأسى عظيم : وددت لو أنى صحيح ومعافى لخدمت المصلين ، قال محب .. عافاك الله ، عافاك ، همس واحد من الحضور ، كلامك جرح قلبنا ياشيخ محب عندما قلت الطف بنا فيما جرت به المقادير ، صاح الشيخ على وخيل للحضور ان الغلام اهتز جسمه ، بالضبط ، بالضبط ، انخفض حسه فجأة ، فى كل قلب من الجروح مايتكأها قولك يامحب ، اشفق الناس عليه ، تخيل كل منهم نفسه مكانه ، حدبة فى ظهره ، طلوع فى صدره ، ربنا اعطاه فمنحه غلاما يطوف به المدينة ، لو كان فقيرا لمات على الطريق أجرب مهملا ، قام تاجر فراء ، قبل يد الشيخ محب ، طلب من الشيخ على أن يدعو له ، لابد من ذهابه قبل صلاة العشاء ، المماليك ناحيته ينزلون من القلعة ، يقطعون الطريق على الخلق ، صاح الشيخ على ، لا حول ولا قوة ، قال عجوز من المصلين ، سبب الاضطراب فى هذه النواحى وقوع الوحشة بين الأمير طاز شاد العمائر ، والأمير آروس منكلى بغا ، قال آخر ، كل منهما مترصد للآخر انسال حزن رقراق كحد الموسى فى الهواء ، حبت اصوات من بعيد ، كأن الجامع فيه مخلوقات من عالم غريب ، ترقب تسمع،ورأس الشيخ على مال حتى لامس ظهر الغلام كأنه ينام ، يعرف الحضور انه متيقظ منتبه فجأة،استعاذ بالله ، والله حرام ، والله حرام ، لم يعرف الناس أى شىء يقصد بالضبط ، امنوا كلامه ، زعق فجأة حتى اهتز جسم الغلام ، هذه ساعة دعاء مستجاب ، اطلبوا شيئا من الله ، فصرخ الجميع بصوت يخلع الجنين من بطن أمه ، اللهم ارحمنا واجعلنا فى

زمرة الآمنين .. فبكى محب وطال دمعه ..

* * *

« الأمير طاز شاد العمائر ، اصله من مماليك طشتمر الساقى ، فى الفترة الأخيرة اصبح متين البنيان ، يرهبه الشجاع والجبان ، استفحل أمره ، واستطال عبيره ، وعظم خطره فارتعب منه آروس منكلى بغا — سيأتى ذكر هذا — كان يكره من يعانده ، وحشا ، سفاكا للدماء ، وهو صاحب الواقعة الشهيرة والفضيحة الأخيرة مع الست التى كانت تسوس الخيل ، نقول بلا كثرة كلام ان الأمير طاز حدث فقال :

« .. جاءنى الخدام ، أخبرونى انه بالأبواب ، خطا الغلام المتين الى داخل القاعة ، قلت أهلا بمن لا يهدأ قلبه ولاينام ، فى مرة سألت عليا ، الا يرغى بما يسمع ، أخبرنى انه الى الحائط أقرب ، وبطوب الجدران أشبه ، ارتاح قلبى ، لولاك لما عرفت تدبير حالى ومالى ، فى هذه الليلة البعيدة داخلنى شك خرم ضلوعى ، تقرب منى آروس فدعانى للعشاء ، رحت ، كان السماط مهولا ، فوجئت بالغلام وسط الحضور مطأطأ الرأس ، يعلو وجه الشيخ مرة من يمين كتفه ، ومرة من يساره ، أخذت ، تجاهلنى حتى أن الغلام لم يقف به لتحيتى ، هز رأسه الصغير المثقل بعمامته ، يغيظنى ، وقفت اللقمة فى حلقى ، يضحك مع آروس ، يمازحه ، يقولون ، اذا وجد الشيخ على فى جلسة ، فهو المدير للحديث وماسك دفته ، يضحك الحزين ، ألم يكن نديما للاتابك ، رجعت بيتى وأرسلت اليه ، لم يأتنى ، اسرجت خيلى وذهبت اليه ، دخلت عليه ، ما الذى جرى ياشيخ على ، تخامر مع عدوى علىّ ، لم أر الغلام ، الشيخ ملقى على الفراش ، بدا صغيرا ضئيلا ، استغفرت ربى فهذه خلقته ، طاف بى خاطر خبيث ، كيف يقضى حاجته فى الحمام ، أيبول على ظهر الغلام أم ؟؟ غاظتنى اجابته الباردة ، ماذا جرى لك ، قلت أنت الوحيد الذى أثق به ، ثم أراك تخوننى

عند آروس ، اغمض يومها عينيه ، لم يرد ، قلت انى خارج لكن سيدركك من آروس أذى عظيما ، اخرج باطاز ، بحث فى جسمى ، يقلعنى ثيابى ، تمنيت لو قال .. ابق ، عنده من الكلام ما يقلب به الدنيا على ، لو ذبحته ، لا أدرى ماذا سيفعله غلامه الذى لم أره ، قلت : اهانت عليك عشرتى ؟ عيناه مغمضتان ، أنا لا أرضى بمصاحبة أغبياء ، قرضت اسنانى ، كلما وقع أمر عظيم الشأن ، يسكت ، ثم يجود بما عنده ، الصمت ، الليل ، لو أنفجر ما بصدرى لماجت القاهرة ، غلت ، انقلبت،قال فجأة ، آروس يروى عنك أمورا جساما باطاز ، ليست عادتك ياشيخ على . تكلمت بسرعة ، انتقلت الى جواره ، استعاذ الشيخ بربه ، لعن كل وشاء نميم ، تمتم بقوله الكريم : « الم يعلموا أن الله سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب » صدق الله العظيم ، بعد صمت وخزنى فيه ابر . قال ، طلع آروس اللعين الى الأتابك وأفضى اليه ماهو مشين ، أنا طاز شاد العمائر ، أدخل عند حريمى ، انبطح على وجهى ، آمرهن بضربى حتى يغمى علىّ عند ذهابى الى الجامع الجديد الذى ابنيه ، الأدهى والألعن ، ماتزلزل الأرض منه ، يأتى بالمصائب ، هل قلت عليه هذا ، من أين لى معرفة ان كان الاتابك فحلا مع حريمه أو لاحول له ولاقوة ، هز على رأسه ، قال ، والله خجلت من قول هذا لكم ، استطال الصمت ، صار له ضجيج ، قمت ، رحت ، جئت ، قعدت ، أطلع من ساعتى الى الاتابك أحط فى آروس ، أعجنه عنده ، آه ياشيخ على ، سكوتك يحيرنى ، مرة عرضت عليه مالا ، صاح وماج ، لطم الخدين ، شق قفطانه ، قال انه لايبتغى الا فعل المروءة ، حبه لى ما يدفعه الى هذا ، فى هذه الليلة البعيدة لا أنسى ماقاله لى ، من مصلحتى ان قلت له خذ منى ارضا ياعلى أى ، حيرنى ، يستوثق منه آروس ، يفضى اليه سره وخبيه ، لو أعرف طلبه ، أستريح ، لولاه لطاحت رأسى من زمن ، ثم أى شخص مثله يمكنه الدخول الى أى مكان شاء ، فى أى زمن ، أى وقت ، يحكى ، يسمع ، لابد ان الله أوقع محبتى فى قلبه لأنه يشاء سعدى وطلوع نجمى ، فجأة قام الغلام ، يحس الرغبة فى البدن اللصيق به يأتيها بدلا منه ، استغفرك ربى ، ما الذى فعلته لآروس ، والله آخذه

قبل أن يأخذنى .. »

• • •

« فى يوم الأربعاء عاشر شهر رجب ، توجه الشيخ على محمولا فوق ظهر ركين الى بيت الأمير آروس لأن الأخير استدعاه وألح فى طلبه » يقول الشيخ على :

« اغمضت عينى ، احطت صدر الغلام بذراعى ، سألنى الأمير آروس ، هل تنعس ياشيخ على ، بصوت خفيض قلت .. معك .. معك ياآروس ، فى الرميلة عند عبوره مرة صاح عليه أحد العوام ، ارفع عنا مكوسك يا آروس . ماكان منه الا انه أمر بتوسيطه عند باب الوزير ، لفظ آروس ولم يقرنه بكلمة . « ياأمير » ، اقول له ما أشاء ، اطمئنه ، أحييه ، أهدئه ، فى المغيب خرجت من جامع الأقمر ، وقف الغلام جامدا كالحديد ، همست ، الى سوق الشوائين ، الطريق ملساء ، ماقبل الليل ، لا يلتفت أحد ناحيتى ، تعودونى ، ثم انى لا أبالى ، نساء محجبات ، خيول يركبها غلمان مزهوون ، تعاظم الزحام . أحكمت ذراعى حول ركين ، وسط الخلائق رأيت رجلين طوالا عظام القامة ، يرتدى أحدهما ملوطة ، والآخر قباء بأكمام طوال ، كانا طويلين جدا عريضين جدا ، توقف ركين أمامهما ، أطلت النظر اليهما ، اثنان ، رجلان ، مجرد رجلين ، هل سأل واحد فى السوق ما وراءهما ، حكاية كل منهما ، ربما هذا من عرب الشام ، ربما الآخر مغربى ، لصان ، ربما سارقان ، حملقا الىّ ، بخوف ، رهبة ، دهشة ، قال لهما الوقوف ، الشيخ كله بركة ، لم أرمش بعين ، حملقت اليهما صامتا حتى سرى الى خوفهما وقشعريرة جسديهما.آه من أيام الزحام ، انظر الوجوه فى الطرقات هذا رأس مستدير ، هذه كالشمامة،عيون ، أنوف ، ماوراء اصحابها ؟ اتمنى لو أوقف جميع الرجال والنساء فى شارع قصبة القاهرة صفا واحدا بل البلدة كلها ، الرجال ، النساء ، ثم الأطفال ، أطوف عليهم ، اسأل كلا منهم عن حاله وماله ، خناقاته ، مصالحاته ، أكله ، شربه ، نومه ، تفاصيل حياته مع امرأته ، كيف

تناديه ؟؟ حالمسا لحظة المناغشة ، احيانا يهيج فى الخاطر ، اطلع مئذنة قلاوون ، الظلال من أعلى رمادية ، الارتفاع شاهق ساحق ، البيوت سجادة ، لو رميت طوبة فى الفراغ ، تسقط على أى بيت ؟ أشير على أى ربع ، قصر ، من يسكنه ، أين من ؟ امه من ؟ اسمها ، عندما كنت صغيرا لا أقدر على اللعب مع العيال ، بعد حفظنا وتلاوتنا آيات القرآن ، طوال اليوم أشغل نفسى بمعرفة أسماء أمهاتهم ، هذا زينب ، الآخر بخيته ، مبروكة ، اذ يقترب الصبى منهم الى ، يهددنى ، يضايقنى ، أخوفه بافشاء اسم أمه ، يبتعد ، اذ أقعد بجوار الغلام منهم ، أردد فى عقلى ، اسم امك فلانة ، أى بيت أدخله ، ينظر الحريم الى ، اتأمل اجسامهن الحلوة ، كيف تبدو من الداخل ، أمن المعقول ان هذه الحلاوة كلها تستلقى كخرقة تحت رجل كالفحل يمور ويخور ، هذا من شقاوة الصبا ، وسالف الأزمان ، قال آروس ، ما رأيك يامولانا ، فتحت عينى بطيئا ، آروس ، لو أعرف ماق عقلك الآن ، هذه اللحظة بالتمام ، أفلتت وأصبحت كان ، اطلت الحملقة فيه ، أرخ الطرف عنى ، كررت ، أحك مرة ثانية ، بعد تردد قال انه رأى فى المنام طاز يجلس بين قوم فى واد فسيح ، يرتدون جلابيب بيضاء ، وجوههم مهيبة ، لحاهم عظيمة ، يقف طاز بينهم يسبنى سبا فاحشا ، وراح آروس ثم جاء ، قصير ، متين البنيان أنيق الثياب ، سألنى رأيى فى الحلم ، قلت والله عجيب ، لو كلمته بسرعة ، أشبعت ظمأه ، يبدو قولى غير ذى قيمة ، يطيب على جمر قلقه ، ثم اطفىء ناره قطرة .. قطرة .. ايضا ، أشعلها ، أوهجها ، زعقت فجأة انهد الصمت ، .. «ياكريم » .. اهتزت الآذان ، رحت أرقبه بعد ان تدارك نفسه من فزع ، بين الجمع يطلع حسى فتلتفت الأعناق وتنخلع القلوب ، تكلمت بصوت عال ، ثابت كوتر ، لا يهتز ، لا يرققه حلم ، لا يخشنه غضب ، الرؤية صحيحة ياآروس ، انت رجل صالح تقى . كل ماجاء بمنامك صحيح ، قفز الى جانبى ، اقترب منى حتى كاد يصدم « ركين » ، دار حوله ، لامسنى ، صاح منزعجا ، أحك ، فسر ياشيخ على لا أحرق الله لك قلبا على غال ، تأملته ، آروس منكل بغا ، يبدو أمام السلاطين فحلا جسورا ، لو يراه العامة الآن لتناقلوا وصفه مئات الأعوام ، طلبت المغفرة فأقسم لى برأس

أبيه ان أتكلم ، نظر الى الغلام ، ابتسمت : ينطق الجماد ولا يتحرك فم هذا ، عدت الى الصوت الرتيب : مارأيته فى المنام قاله عنك طاز باز شاد العمائر بالحرف الواحد ، زعق حتى كادت لحيته تنخلع من وجهه ، لم أتوقف فى الحديث: وقال طاز انك تخفى ذهبا فى سرياقوس ، أقسم ان يرافعك وينتزع منك مائتى الف دينار ذهبا خالصا.أمهلت صوتى ، تأملته ، دفعت رأس ركين حتى أرى وجهه المفزوع ، اذن ما سمعته عن أموالك المدفونة فى سرياقوس صحيح ، ربما فاقت أموال طاز المخفية فى منية أبن خصيب ، كله من دم ايتام مساكين عرايا ، تنبه الى اضطراب أمره ، حاول ان يلملم نفسه ، يستدرك فارطه ، قلت:يهدأ بالك وترتاح روحك يا آروس . قام ركين مرة واحدة ، ضحت ياآروس ، سمعت همسك ، ارتجاف قلبك .عض شفته ، بلل لسانه تخلل بأصابعه لحيته ، قال اطلب لنا المغفرة ياشيخنا ، قطبت الجبين ، كرر كالبكاء ، ادع لنا ياشيخ على ، اغمضت عينى ، بسطت كفى على قدر ما يمكننى ، فانطلق ركين بسرعة حتى لفحنى هواء غض قوى .

• • •

« بسم الله الرحمن الرحيم »

قال تعالى « وان الله علام الغيوب » ، قال ربى .. « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » .. وقال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » أما مولانا عمرو بن العاص فحدث « الكلام كالدواء ، ان أكثرت منه قتل وان أقللت منه نفع » .. أما بعد

من الشيخ على بن الكسيح الى أمير كبير ، أتابك العسكر ، فلما أقعدنا مرض غلامنا ركين ، اضطررنا الى الانزواء ، وفى دارنا البقاء ، فلم نقدر على الطلوع الى القلعة ، ولما كانت الأحوال مضطربة ، والخلق فى هجاج ، وبين آروس

وطاز وقعة وأرسلت لنا مرسالكم الأمين تطلب الاطلاع على الأحداث قبل فوات الأوان وشدة البأس ، فانتهزنا فسحة من وقت ، سنحت لنا اذ يتكاثر الزوار علينا ، من خاص وعام ، يسألون عن احتجابنا وسر انزوائنا،هذا عطار غبت عنه يوما فسعى الى ، وذاك جزار لم أقل له السلام كعادتى كل صباح فترك دكانه فى حراسة جاره وجاءنى ، كنت صحيحا غير ان السؤال عنى ، مع ان غلامى هو المريض ، فى خلواتى أدخل اليه لم أهمله ، أوصيت به ثلاثة حكماء ، أقول ولا أفوتكم فى كلام ؛ ان المدينة كلها أصبحت عندى بالخاص والعام ، لهذا ارسلنا لكم مالى من نبذ وشتات ، لعلكم تجدون فيها بعضا مما فات ، نجلو عنكم ما غمض ومات ، ولا أطلب الثواب الا من الهى رب العرش والسموات » تقول ..

- فى يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى زار منطاش الجمدار بيت طاز وأهداه لفافة من ثياب ، أربعين ذراع قماش اصفر طيلسان ، ورطلى عنبر ، وتمورا عراقية، وأوزاق اقفاص ، وهذه بوادر وقوع اقتراب بينهما .. بعدما عرف عنهما ان الواحد لا يطيق صاحبه ..

- فى الخميس نفسه خرجت خوند زوجة اصلم ، معها امرأة ابى بكر بن أرغون الاستادارا ، وبنات أرنبغا نائب الكرك ، وخرجن الى ظاهر القاهرة ، وقضين وقتا كله متعة فى قبة النصر ، وقيل ان الغوانى رقصن عندهن بالشبابة السلطانية .. أما الأكل فكان مهولا ، عشرون رأس غنم ، وسبعون فرخ طير ، وعشرون صينية بالمرق ، وسبعون آنية لحم نصفها عمر والآخر مقلى ، أما الفاكهة فأصناف ، الى جانب النقل والمشموم ، ولم أعرف من الذى انفق على هذا كله ..

قال ارقطاى المملوك ان هدومكم يوم لعب الكرة كانت مضحكة ، وان القصاد الأجانب والشوام تحدثوا فى هذا ، قال ــ الله اعلم فالكلام الآتى لست واثقا منه ــ انكم بالغتم فى هز اكتافكم وانتم فوق السرج

المذهب ، وانكم ما فعلتم هذا الا لاظهار عظمة زائفة ، (اللفظ الأخير أنا متحقق منه) .

- .. أكثر الأوباش ، والشلاق من الأعوام فى الكلام ، لأن المماليك خطفوا امرأة بيضاء حلوة يقال انها ابنة عجوز يملك بغلا يشيل عليه الأحمال .

- ..بالغ الفقيه محب من ترديد « الطف بنا فيما جرت به المقادير » حتى تعاظم الجمع حوله ، وكثر كلامه ، وأمره مفروط على آخره وسط الناس .

- .. اشترى بيبرس الأحمدى عشر جوارى صغار ، قيل ان واحدة منهن لا يوجد مثيلها ، وأشيع انه يأتيهن كالغلمان (أنا على ثقة من هذا) . استجير بك يامن خلقت حواء من ضلع آدم ..

- .. فى ليلة الجمعة التى تعود فيها سنجر الجاولى الطلوع الى القرافة الشرقية والمبيت فيها ، سمعت ان قمارى السلاخور يتسلل الى بيت سنجر من الباب الصغير المطل على درب المسمط والمخصص لدخول الثور الذى يدير طاحونة المياه فى البيت . قيل وعلم ذلك عند ربى ، انه يفعل الفاحشة بأمرأة سنجر ، وانها راضية » .

* * *

« تنويه وتنبيه الى القارىء الكريم »

وتحوى الرسالة ــ بعد ماأوردناه ــ الكثير من فاحش الأخبار ، وماينهش لحم الناس وأعراضهم ، ويكفى القول انه يتطرق الى ذكر طرق الناس فى اتيان حريمهم ويتبحر فى هذا كالعالم ، غير اننا نخجل من نشر هذا ، وللعلم فالرسالة تقع فى عشرين صفحة كبار ، فمن أراد الاطلاع عليها والتحقق منها فعليه مساءلة كاتب هذه الأخبار ، فنصها كله يوجد عنده ، أما أن ننشر هنا فهذا مالانرضاه

ولا نقيه ..

• • •

وفى الليل كاد دماغى ينطلق فيه فرخ جمر ، لم أنم ، الفجر لم ألحظه وعندما فتحت عينى رأيت النهار فى الحجرة وركين عند آخر الفراش والحشايا ، تأكد اننى صحوت خسارع الى ، فى الحمام اجلسنى ، رجعنا الحجرة ، لن انزل المدينة ، من أيام والأمان ضائع ، وقعت الوحشة بين الأتابك وآروس ، فحشر آروس بين غضب الأتابك ومكائد طاز ، لم يطق صبرا ، جاءنى طاز فقلت انها فرصتك لو خوزقت آروس فى شارع الصليبة فلن يرافعك أحد ، خرج من عندى ، غير انى والليل ظلام دامس كأن الدنيا لم تعرف النهار أبدا ، رثيت لآروس ، تأكدت من كبس طاز له فى الفجر ، بموت آروس ، داخلنى اشفاق عليه ، حزنت من اجله لم أكلم ركين كلمة ، عرف فى الليل طريقنا ، قلت لآروس خذ احمالك ومالك واتبع روحك من هنا ، بكى ، قبلنى ، استودعنى ، خرجت والمدينة تغط فى سبات ، طرقاتها تحمل آثارا من مطر أورث الأرض وحلا ، تعب ركين ، مشى متمهلا ، أبواب الحارات مغلقة . قرب بيرجوان مر بنا رجل يستند ذراعه على كتف امرأة تحمل غلاما ، تمهل ركين ، درنا حولهما ، عرفت انهما كفيفان يزعقان يطلبان حسنة ، فى مثل هذا الوقت ؟ من أى انسان ؟ تعجبت من هذا ، مشينا ، أمام جامع الناصر قلاوون   دهمتنى المئذنة برهبتها وضخامتها وسوادها الحى ، كدت أصرخ فيجرى ركين ، مشيت على مهل ، عندما جاءنى ركين ، فى صباح اول يوم يقضيه معى فتحت عينى فوجدته يقف أمام الفراش ، طويلا ، عريضا ، ارتعب قلبى منه والله ، كان صامتا غير انى خفت ، ساقاه جامدتان ، مليئتان بالشعر الكثيف ، صدره عريض كفحل ، خشيت منه على حريمى ، فى الليل ، آخر الليل أحضرهن ، راوية على ظهرها الأملس العارى ، اتفحص الباقيات ، آمرهن باتخاذ أوضاع معينة . اطيل النظر اليهن ، واذ يجثم الليل فوق قلبى آمرهن بالانصراف ، أصير وحدى فتعلو انفاسى ولا أعرف ان كان النوم

جاءنى أو هجرنى ، تحت يخوفنى الى الأمير ملكتمر فضحك واخبرنى ان ركين خصى اصيل لاخوف منه ، زالت الهواجس من عندى غير انى لم ارتح الا بتحققى من هذا بنفسى ، فصرت أشركه معى فى الفرجة وأنا آمن ، بعد خان الخليلى عظم الظلام ، عيون خفية ترمينا بشرارها تطل علينا من بيت بشناك ، خاطر سريع مر بى ، كم من الرجال يتمن الآن مع حريمهن .. الجدران تخفى وتخفى ، آه لو خلق الله انسانا له عقل يرى فى كل مكان ويسمع مايدور فى أرض قاف ، ضحكت فى سرى ، غير انى رأيت فى عقلى صورة طاز فارتعبت ، ربما عرف انى رحت عند آروس ، وأنا بعض محاسيبه ، يكتشف هروب طاز فى الصباح فيعرف اننى السبب ، سارع ركين فى جريه ، العيون تضيق وتتسع ، آروس مأخوذ لا محالة ، طاز أمامه من الوقت فسحة ، ربما صار متحكما فى الأمور ، انخفض ركين رأسه وظهره ، دخلنا من الباب الخلفى الصغير ، قلت وصوتى جامد ثابت : خذ خيلك ياطاز وادرك آروس ، خذه فى الفجر امام بيته أو فى الصباح عند ظاهر القاهرة ، لو عوقت لفاتك بزمن انهيت كلامى ، استدار ركين ، هكذا لا أزيد ، لا أنقص ، فى الظهر جاءتنى الأخبار ان رأس آروس منكلى أجترت وان جثته مرمية فى الجبل حتى تصدق عليه فقير فكفنه وغسله ، ولم اعرف اسم هذا الفقير ، وارجح انه واحد من العوام ، فى المساء رحت ، جئت فى الطرقات ، الدكاكين مغلقة ، الأسواق مقفرة ، غضب أتابك على العامة ، اخبرنى الشيخ البنان ان بعض الواشين نقلوا بعضا مما يدور على السنة الناس الى أرباب الشأن فغضبوا ، طفش عسكر المماليك فى الخلق ، ضايقوا الناس ، قتلوا منهم الكثير ، شبح الخراب يجلس القرفصاء فوق البيوت والربوع لعنت الوشاية ، صحت زاعقا : كيف لم يعرف من فعل هذا ؟ فهمس الشيخ وهو يتلفت حوله ، طاب لى منظره فرفعت صوتى ، لاحظت رأسه تغرق فى العرق ، لعن أولاد الحرام ، فارقنى بسرعة ، داخلنى قلق ، رنة صوته بها شىء ، دار ركين فى حجرات بيتى ، لن أفارقه كالآخرين ، آه لو افتح الرؤوس وأعرف مابها ، لابد ان الأمر شديد الهول ، والله اطلع الى الأتابك ، الى السلطان نفسه لأعرف حقيقة الحال ، ماالذى جناه محب حتى يذبح ، وآروس بالحكم الزمان ، من رآه فى جاهه لا يراه

فى رميته بلا كفن ، فقير لم أعرف اسمه بعد تصدق عليه ، دفنه ، الغروب ثقيل ، كدت استدعى راوية البنات لكن خيط ملح مر امتزج بلعابى وروحى فسد نفسى ، لا أطيق البقاء ، ركين قلق حبيس ، العصافير صغيرة تقف عند المشربيات ، أصواتها تضفى حزنا طربا مؤسيا على لون النهار .

﴿ خاتمة ﴾

« وما ان طلع النهار ، حتى علت أصوات ، دمدمة ، بكاء ، عياط ، صياح ، عويل ، استغاثات ، تساءل الشيخ على عن مقصد الجمع ، اسرع ركين اليه ، طلعا السطح ، كاد قلبه يقع عند الحافة ، الطرقات تغص بالعوام ، والفقهاء فوق المآذن يرفعون ايديهم ، يصيحون ، أى هول ؟ أى حدث ؟ ارتجف قلب الشيخ ، ماكان يخشاه وقع ، دار الكلام ، لف ، ثم اقترح بعض اللئام المجىء الى بيته ، يحرقونه ، هذا ما ظنه ورآه ، من يدرى ، ربما طائر هو السبب ، سلط الخلق عليه ، فالشيخ يعرف سره ، علت الدمدمة ، الهياج ، عظم الأمر ، دقت الأكف الباب ، الرؤوس من أسفل ، أيد تعلو ، لا مفك ، لا مخرج ، احتار ركين غير ان الشيخ اضمر النية على عدم مفارقة بيته ، نزل ركين الى القاعة الكبرى ، سيدخلون عليه ، يلقونه هادئا رزينا ، مسكينا ، يحاججهم ، يقنعهم ، سرت رطوبة الشتاء فى عظامه ، أحاطه ركين برداء بياقته فرو اصلى ، لو هرب ، لتأكدوا واقتنعوا ، لم يلق على شفتيه غير مناجاة خالق الدنيا والدين ، اخذه الحزن ، تحسر على روحه حتى كاد يدمع ، ركين هادىء جامد الوجه ، وقع الأقدام فوق السلالم ، فى غرف البيت ، يبحثون عنه ، مابلغت من عجين الأصوات ، مناداة ، طلب للرحمة ، انخلع باب القاعة ، رجال مستوقد فول ، عمال حمام قريب ، بائعو حلوى وسنبوسك ، الشفاه متدلية ، العيون جاحظة ، يوم حشر ، مامر بالشيخ من ايام يجرى أمام عينيه ، زعق حس رجل غليظ : اشفع فينا

يامولانا الشيخ . كأنه صفع ، ماء بارد نزل على قلبه ، تحلقوا حوله ، يتضرعون ، يشكون ، سكت كالجماد ، يكاد يرتجف كفرخ صغير رموه فى النيل ، سكت ، سكت طلب كبير منهم الكف عن الكلام ، تقدم منه ، طفش المماليك فى الخلق فتعطلت الأعمال ، شنقوا وذبحوا فكادت تفنى أمه الاسلام من يوم ، يومان ، قالوا ربما هدأت الحال ، لكن الأشياء أمست فى زوال ، بعد طول صبر وحرقة بال ، لم يلقوا أمامهم غير الشيخ على ، سكت لم ينطق ، قرض شفته باسنانه ، اغمض عينيه ،. صاحوا كلهم ، أشفع فينا ، لا يوجد غيرك يقدر على الطلوع اليه . فتح عينيه ، زعق الشيخ على بن الكسيح صاحب ماذكرناه من أخبار وحوادث بصوت زلزل الأصحاء منهم : ياغفور ، يارحيم . اطرقوا خاشعين ، زعق مرة ثانية : يامن لايقدر على جبروته انسان ، تقدم منه ركين ، ارتفعت يده ، قصيرة رفيعة ، افسحوا الطريق ، صاروا يدعون ، يزعقون ، قال واقف سيضربهم بالنعال ، قال ثان ، لا يجرؤ غيره ، زغردت النساء ، أخذه هول الجمع حتى اهتز قلبه ، اهتز الغلام ركين ، طرأ شىء على خطوه،أحسه الشيخ لوح بيده ، زعق مرات ، البيوت ترتعش من شدة الزحام ، والله يوم يشيب منه الجنين فى بطن أمه ، تساءل فى سره ، ما الذى جرى لركين ؟ نظر فى وجهه لحظة ، دموع غزار تجرى من عينيه ، ركين لم يبك مرة واحدة ، ربما أخذه التأثر من شدة الجمع ، صاحت عجوز ، حتى خادمه الأخرس بكى ، اللهم باركنا بالشيخ على ، ارتعش جسد ركين لفظاعة بكائه ، تعثر ، حار الشيخ على ، لفه هدير الأصوات ، يرفع يده فيسكتون ، يزعق ، يارحيم ، يرددون : يارحيم ، فاتوا تحت باب الوزير ميدان الرميلة قريب ، الحريم بعضهن يزعق وبعضهن يبكى ، كلما مشينا خطوة انضم الينا الكثير ، غير ان ماحير الشيخ على وأقلق كبده فى مرقده ، عياط الغلام ركين الذى لم يكف بل راح يزيد .

١٩٦٩

• • •

العـــرى

.. لم يلق عقبات ، بعد ان عاين المنطقة ، وموقع العمارة ، وتأمل المبانى الخاصة المجاورة والمحاطة بحدائق تتفاوت فى مساحتها ، وأحصى الدكاكين الأنيقة تحت العمارة ، البقالة ، الفاكهة ، الصيدلية ، اللبان والكواء قال لنفسه ان من يسكن هذه العمارة لا يضطر الى الذهاب بعيدا ، هذه الدكاكين تشكل سوقا متكاملة ، قام بجولة فى الطرق المؤدية الى المبنى ، لو سأله الضابط سيجيبه وكأنه يحفظ المكان عن ظهر قلب ، الشوارع هادئة ، والمكان أنيق ، والمارة قلائل يختلف عن كل المناطق التى ذهب اليها من قبل ، انه يذكر الزاوية الحمراء ، والوايلى ، وتل عارف ، الطرقات قذرة ، والنساء ، امام البيوت يحملن اطفالهن نحاف الرقاب ، العمل هناك صعب وسهل ، لكى يراقب شخصا ما يجب أن يتخفى وان يتسلل الى الناس بحذر ، كأن يقوم بدور بائع متجول ، أو سمكرى ، لكن هذا لا يستغرق وقتا أما هنا فلابد من الانتباه ، لا يكلف بالمهام المتعلقة بمثل هذه الأحياء الراقية ، الا أصحاب الخبرة الطويلة والمشهود لهم بالكفاءة ، فى الأزقة والحوارى يصل بسرعة الى هدفه ، لا شيء يخفى هناك ، لكن كيف يعرف هنا أن الداخل الى هذه العمارة يقصد المدام كوكيتا ؟ يرتفع المبنى ستة عشر طابقا ، فى كل دور أربع شقق ، يسكن فيه وكلاء وزارات ومهندسون ومحامون ، وأطباء وصحفيون لكل منهم عائلة ، قال سيادة الضابط أن الشكاوى تراكمت وتكررت ، ويجب التزام اليقظة ، ومراقبة المترددين على شقة المدام كوكيتا فقط ، قال سيادته ان الاختيار وقع عليه لأنه أكفأ رجال الخدمة السرية فى ادارة حفظ الآداب ، وأقدم المخبرين . رفع يده بالتحية وقتئذ ، لكنه لم يتخيل ان المبنى ضخم هكذا ، استغرقه التفكير فى البحث عن وسيلة أو موقع لرصد المكان حتى نسى

مطالبه التى اعتزم التقدم بها الى الادارة ، كمضاعفة مصاريف المهمة لأن الوقت الذى سيقضيه هنا طويل ، والمكان بعيد عن بيته فى الجمالية ، وسيلجأ بالقطع الى استخدام التاكسى ، كما أن الوجبات التى سيضطر الى تناولها هنا مرتفعة الثمن ، سندويتش الجبن مثلا ، بكم يبيعه هذا البقال ؟ ليس معقولا ان يطلب من امرأته اعداد سندويتشات له ، ربما لفتت الأنظار اذا أمسكها بيده طوال النهار ، ما استغرقه هو محاولة ايجاد وسيلة لمراقبة مدخل العمارة ، ثم محاولة فرز الداخلين والخارجين ومعرفة المترددين منهم على كوكيتا .

قضى اليوم الأول كله فوق سور الحديقة العامة الأنيقة الفسيحة الممتدة امام المبنى ، ولولا معطف قديم عرف كيف يحافظ عليه مع توالى السنين لما احتمل برد نوفمبر ، غير انه لم يصل الى نتيجة ، كل ماحدده موقع الشقة فى الطابق السادس ، تواجه الفراغ بثلاث شرفات عريضة ، وأربعة نوافذ ، لم ير حبال غسيل ممدودة ، انما نباتات تتسلق الجدران ، خمن انها منبثقة من أصص زرع . فى الشرفة الوسطى فانوس كبير من نحاس قديم ، أما الشرفة الثالثة فمغطاه بستائر برتقالية اللون ، لم يظهر أحد حتى العصر ، حوالى الرابعة والضوء يميل الى اصفرار ظهرت امرأة ، لم يستطع رصد ملامحها ، دخلت قرب الغروب فتحت نافذة ، وأضيئت المصابيح فى الشرفات ، أدرك بصره كلل ، فلم يستطع رؤية تفاصيل . عبر ذهنه خاطر سريع . يوجد الآن من يمارس الجنس خلف هذه النافذة والشرفات ، كم شخص يبدأ الآن فى المبنى كله ، وليس فى شقة المدام كوكيتا وحدها ، فارق سور الحديقة متمهلا ، لا .. لن يصل الى نتيجة بهذه الطريقة ، حضرة الضابط لم يحذره من تجنب اسلوب معين ، له حرية التصرف.المهم ، ان يصل الى هدفه ، عبر الطريق ، توقف أمام المدخل الفسيح ، الباب العريض والجدران المغطاه برخام اسود تتخلله تجزيعات بيضاء شاحبة ، تهب رائحة رطوبة غامضة تنبعث من داخل العمارات الكبيرة التى لا تعرف الغبار أو ضجيج الصغار ، أمام أحد أبواب المصاعد الثلاثة تقف امرأة شابة ترتدى فستانا أزرق ، جميلة ، ثابتة النظرات ، لم يلمح البواب ، صفق ، لم تلتفت اليه المرأة ، ولم

تسأله ، من يقصد ؟ من طرقة طويلة الى اليمين علا صوت خطوات ، انه البواب الذى استمر يراه طوال اليوم ، ومع ذلك سأله أنت البواب ؟ خارج الباب انتحى به جانبا ، قال باختصار وهو يبرز بطاقة صغيرة خضراء اللون : مباحث !

لم تهتز ملامح الرجل ، أومأ برأسه ..

خير ؟؟

قال انه مكلف بحماية أحد السكان ، انه يحتل منصبا هاما ، وحياته مهددة لأسباب ما ، سيرقب الداخلين والخارجين ، كل مايطلبه من عم عبده ان يخبره سرا بأسماء السكان والمترددين على العمارة ، واذا سأله أحدهم عنه فليقل انه أحد الأقارب من البلدة جاء ليبحث عن عمل .

عند هذه النقطة من الحديث اخرج علبة سجائره . غير أن عم عبده اعتذر لانه لا يدخن ، فى الأيام التالية بدا راضيا ، احتل موقعا لا يحلم به أى مخبر . لم يضايقه الا صمت عم عبده المحدق الى الدنيا بعينين ضيقتين . لا يتأثر وجهه بأى انفعال ، ولم يسمع صوته الا اذا تأخر المصعد فى طابق ما ، عندئذ يخبط الباب المعدنى : « اقفل الباب » . الوسيلة الوحيدة لتبادل الحديث معه توجيه الأسئلة ، لم يتأخر أبدا عن الرد ، ولكن عندما أدعى ان ضابطا كبيرا فى المباحث يبعث الى عم عبده بتحياته وشكره لتعاونه الصادق مع الشرطة لم يبد عليه أى اهتمام ولم يعن حتى بالرد ، اضطر الى توجيه بعض أسئلة اليه بمجرد الرغبة فى تبادل الحديث خاصة فى ساعات الظهيرة التى تخف فيها الحركة وتتوقف المصاعد ، وتجىء ، أصوات بعيدة غامضة تزيد من ضيقه وحاجته الى اغفاءة غير متاح له التمتع بها ، غير أن ماتوصل اليه اضفى عليه سكينة حتى انه قطع المسافة من مصر الجديدة الى الجمالية مشيا على قدميه ليلتين متعاقبتين بعد توقف المواصلات . لم ينس ان يسأل عم عبده عن المبلغ الذى يحسبه عداد التاكسى عبر هذه المسافة حتى يكتبه فى كشف المصاريف ، خلال أيام تعرف الى السكان الأصليين ، أوشك على حفظ الملامح ، مواعيد عودة وخروج كل منهم ، خروج الفتيات اللواتى يرتدين البنطلونات الضيقة التى تكشف حدود الملابس

الداخلية ، وقوف احداهن حتى نزول صديقتها الممسكة بمضارب التنس ، رصد الفارق الكبير بين مظهر الفتيات العائدات فى الظهيرة من مدارسهن ومظهرهن عند خروجهن بعد الظهر ، يرتدين بلوزات وجيبات ، ويضعن مساحيق خفيفة ويمشين خفافا مرحات ، هل مثل هؤلاء يحتضرن ويقبلن ويتأوهن ، ايقن بالفارق الكبير بين من رآهن هنا ، أو من تابعهن طوال عمره فى الحوارى والأزقة ، والمساكن الشعبية المكتظة ، خلال هذه الأيام لم تقع عينه على المدام كوكيتا ، لم يسأل عنها حتى لا يستثير شبهة البواب ، اكتفى حتى الآن برؤية بعض المترددين عليها ، ارتبك فى البداية عندما رأى رجلا ثقيل الخطى ، فخم المنظر ، بادى الثراء ، تحيط به هيبة غير منظورة ، لكنه قال لنفسه ، افق الى عقلك ، انت تعمل فى وسط جديد عليك ، رأى ثلاث فتيات انيقات يرتدين البنطلونات لاحظ أن البنطلونات تثيره الى حد ما ، أكد عم عبده انهن أقارب لمدام كوكيتا ،. حوالى الساعة التاسعة عبرت فتاة خمن انها تعمل عند احد السكان ، لم يسأل عم عبده عن الخادمات ، رآها عدة مرات خلال الأيام الماضية ، لم تلفت نظره ، الليلة انتبه الى مرورها البطىء المتمايل على مقربة منه ، ان ثيابها نظيفة ، بلوزة بيضاء لم تخف صدرا سخيا ، يهتز مرددا وقع الخطى ، الارداف متناسقة ، مستديرة لينة ، العينان سوداوان ، الشفتان مليئتان ، لو رآها فى طريق عام قبل مجيئه الى هنا لظنها امرأة عاملة أو ربة بيت ، ترتبط صورة الخادمات فى ذهنه بمن عرفهن فى المناطق الفقيرة ، والبنات اللواتى يعصبن رؤوسهن بمناديل يتدلى من اطرافها الخرز والترتر ، ماجعله يدرك انها تعمل فى احد شقق العمارة هيئتها التى تقل بالطبع عن الأخريات . وهذه الحقيبة خضراء اللون المصنوعة من البلاستيك ، رآها معلقة النظر بلوحة الأرقام ، فى لحة احتوى وقفتها ، تردد لفظ واحد يلخص انطباعه « كالفرس » انشب نظراته بنصفها الأسفل ، لأول مرة تتعلق عيناه بجسد امرأة من العمارة ، حاد ببصره دائما متفاديا السيدات والآنسات ، أم يتحرأ لانها خادمة ؟ أو لشعور غامض بانها خصته بالمرور قريبا منه ، اليست خسارة فى العمل كخادمة ؟، تنتقل عيناه فجأة الى عينيها ، يدفق قلبه قبضات دم ، فوجىء ، هناك ابتسامة خفية ، ودهاء صامت، الدعوة

مؤجلة ، بزوال تكسر جفنيه وتعبه المضنى كأنه يقف امام حمام دافىء ، ردت التحية بيسر عندما تقدم بسرعة من زرار المصعد ، اضاء السهم ، التفت اليها مبتسما ، (نازل) ، أومأت ، أدركه سرور جديد عليه ، تذكر ماسمعه عن خادمات يقعن فى غرام الباعة ، ومغامراتهن مع الأزواج ، وكيف يترك الزوج امرأته ويتسلل ليلا الى الصالة أو المطبخ ليضاجع خادمة ربما كانت قبيحة ، السر يكمن فى التسلل الليلى ومايجدنه من فنون المتعة .

انه لا ينظر اليها الآن ، انما يعلق بصره بالأرقام المضيئة التى راحت تنطفىء واحدا بعد الآخر وعندما بدت الكابينة لم ير ظل أحد فيها قبل ان يفتح الباب يفسح لها الطريق ، كأن يدا تدفعه الى الدخول ، يلتفت اليها بسرعة ، وداخله رجاء الا يصل احد السكان ليستنشق الشذا وحده .. تقول ردا على نظراته المستفسرة :

المدام كوكيتا ..

ضغط الزرار السادس بقوة ، أجل التفكير فى المفاجأة ، احتفظ بملامحه ثابتة بعد عبور الطابق الثانى شم رائحتها نفاذة قوية تطغى على رائحة المصعد المعدنية ، تدركه نشوة لم تواته منذ سنوات ، عندما كان يستسلم للهزات ، والارتجافات ، والتوترات يستدير اليها ويسأل بصوت مرتجف فتقول :

نعيمة ..

يقول انه قريب عم عبده ، تومىء برأسها :

أعرف

ينظر اليها :

شفتك مرة أو مرتين .. سألت عنك عم عبده ..

عندما خرجت قالت « تصبح على خير » ، عندما نزل وحيدا .. دوار ، حتى العاشرة ليلا لم يظهر عم عبده لم تظهر هى ، كل ماضايقه .. ضغط الزرار السادس عندما قالت انها متجهة الى كوكيتا ، ربما اثار ريبتها . من أين .. ان

يعرف الطابق وهو وافد غريب ، لكن البس قريب عم عبده ملم بكل شيء . ثم ان مدام كوكيتا معروفة فى العمارة لكثرة المترددين عليها ، حوالى الساعة الحادية توقفت سيارة بيضاء تهادت كسفينة نزل رجل يرتدى عباءة بنية اللون ، وتقدمه السائق ، عندما مرا من امامه قام واقفا . هذه الحركة التلقائية التى يعقبها اداء التحية عند مرور ضابط . قال عم عبده فيما بعد ان الرجل عربى والأموال لديه بلا عد وانه من معارف كوكيتا ، فى تلك الليلة بدأ المشى فى الواحدة صباحا بعد انقطاع أمله فى نزولها لتشترى حاجة ما ، عند اقترابه من العباسية أدركه أثر منها لاصق بروحه : وقفتها ، استدارتها ، فى نفس الوقت تبلور لديه ما سيقوله لوحدث ورصدت الادارة صعوده مع نعيمة ، سيقول انه فى سبيله الى تجنيدها ، مصدر هام من قلب البيت نفسه ، توقف لحظة،لماذا يتصور هذا كتبرير ، أليس هو الواقع ؟ البنت تميل اليه ، لن يخفى شيئا عن حضرة الضابط ، ماجرى سيكتبه مفصلا ، لكنه لن يذكرها فى تقرير الغد حتى يملأ يده منها ، بدا انه شعر بالراحة بعد ان وصل تفكيره الى هذا الحد . بعد ان قطع ثلثى المسافة كان قد استعادها مرات ، تخيل نفسه الى جوارها ، أو ملتصقا بها ، أى نعيم ؟ توقف امام دكان يبيع البسبوسة والفطائر ، أقدم على تناول سلطانية مليئة باللبن الذى تعوم فيه قطع البسبوسة والكنافة المحشوة بالفول السودانى ، تصرف كهذا لا يتم الا عند حدوث مفاجأة سعيدة له كأن يرضى عنه سيادة الضابط أو يوفق فى مهمة ينال بعدها مكافأة ، أو بعد نزوله منتشيا من البيت ، عندئذ يقدر ان ينزه نفسه فيتناول قطعة البسبوسة ، أو يشرب زجاجة بيبسى أو كوب من عصير القصب ، الليلة يدخل الحارة حذرا ، بالوعة المياه متفجرة ، يتدفق منها ماء رمادى اللون ، رائحته كريهة ، يستمر اياما والنساء يقفن امام البيوت ، يتحدثن ، ويحملقن ، ويتطلعن الى كل غريب ، الأطفال يغوصون فى المياه القذرة ، يتراشقون ، يلعبون ، من فضائل سعدية انها لا تشارك النساء ثرثرتهن ، انه يخطو حذرا ، لمبة الفانوس محطمة ، الأطفال لا يدعونها تضيء أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ثم يشوط أحدهم الكرة فيحطمها ، القادرون فى الحارة يكتتبون لشرائها ، غير ان العيال لا يزجرهم أحد . كما ان عمال البلدية لا يجيئون الآن لتسليك البالوعة ، منذ سنوات كانوا

يمرون يوميا ممسكين بالأسياخ والعصى ، يقومون باسكات المياه المتفجرة ، اهالى الحارة يعتقدون ان سلطانه بلا حدود لعمله فى الخدمة السرية ، اذا انقطع التيار الكهربائى يجيئون اليه ، اذا تراكمت الزبالة يطلبون منه ان يكلم البلدية ، عند مروره ببيت الجرجاوى يسمع انات شخص ما . تعب السكان وأرهاقهم يكاد ان ينضح عبر الجدران،مثل العتمة يستدعى العمارة البعيدة ، فى لحظات الغروب يطل السكان من الشرفات الفسيحة المليئة بالراحة ، مرورهم امامه ، نفيدة هانم تتأبط ذراع شكرى بك المدير العام ، يفتح لها باب السيارة وعندئذ تستدير برشاقة وتجلس فى المقعد المجاور له ، وبرغم انحنائها فان فستانها القصير لا ينحسر بوصة واحدة عن ركبتيها،المدام اجلال بخطواتها السريعة واتجاهها الى سيارتها الصغيرة ، لم يمض على زواجها أكثر من أربعة شهور ، والدها اشترى لها الشقة بعدة آلاف من الجنيهات ، أما المهندس زكى مدير احد المكاتب الاستشارية فلا يرجع الا ومعه قفص فاكهة يهرع عم عبده لحمله ، يطل من فمه سيجار بنى اللون ، نفاذ الرائحة ، يقال ان ثمنه خمسة جنيهات أى ثمن كيلو وربع لحمة مشفاه من سعودى الجزار ، اشترى ثلاث شقق وأزال الجدران الفاصلة ، امرأته تصغره بعدة أعوام ، شابة ضئيلة الجسم ، بيضاء ، تمشى بسرعة ولا تلتفت يمينا أو يسارا ، لم يرها الا مرة أو مرتين ، لا تكثر من الخروج .

انه يعبر مدخل البيت ، منشرة بيومى النجار مفتوحة ، شخير ، رائحة تراب ، رطوبة وركود ، يتمنى الا تستيقظ سعدية ، يود أن يخلو الى نفسه ، يستعيد نعيمة ، لا يدرى ماذا جرى له مع انه رأى الكثيرات ، اقفاص قديمة،قوالب احذية مهملة ، يتمنى ان يدخل اثناء الهجوم على بيوت البغاء ، سمع بأذنيه اسئلة الضابط الصريحة ، المكشوفة ، دهش لجمال العديدات،لم يتحرك فيه عرق عند رؤيتهن ، لكن .. من يسمح له وهو المخبر الذى عاش عمره كله ينفذ فقط ما يسمع وما يصدر اليه من التوجيهات،عمل دائما فى الأزقة والأماكن النائية ، يقف الساعات الطوال منزويا عند النواصى فى البرد ، المطر،يرقب الأضواء خلف نوافذ البيوت التى يراقبها ، وربما يسمع أصوات الضحكات وال ، وقد يرى العناق

منعكسا على زجاج النوافذ ، ولا يفعل شيئا أكثر من أن يرصد ، يراقب .. منذ سنوات اصطحب فتاة فى السادسة عشر ليسلمها الى أحد الأقسام ، أمسك يدها والرغبة نائية ، ظلت مطرقة ، نظر اليها ، الى وجهها الأسمر ، وعينيها المستكينتين ، ولم لا ؟ شبت فى جسده جذوة ، لكن .. أين ؟ حاد عن الطريق وغاصا فى شوارع معتمة حتى وصلا الى طريق محاذى لتحويلة مهملة من السكك الحديدية ، دفع بها الى داخل عربة قطار مهجورة ، فزعت قطط أو فئران ، لم يدر ، كل ماقاله « هنا ؟ » زام بصوته مجيبا ، لم يرها بعد ذلك ، لم تظهر فى أى قضية أخرى ، ولم يجرؤ على الاستفسار عن مرساها .. لكن نعيمة ليست منهن ، انها خادمة عند كوكيتا ، هل يلتفت اليها أحد هؤلاء الرجال المنفوخين بالمال والجاه ؟ ، حتى الآن رصد عشر نساء أكد عم عبده انهن يقصدن المدام . كل منهن تحل المعلق الى حبل المشنقة من فرط الحسن والطلاوة لكن ، وماذا بعد .. لايدرى ؟ .. يسد الباب . لا فائدة ، تستيقظ سعدية مع وقع خطاه فوق السلم ، تمد يديها الى كبس النور ، يطلب منها الا تفعل حتى لا توقظ الولدين ، لا يريد رؤيتها ، يخشى لحظات الحنان التى تضفيها عليه . وترديدها عبارات الاشفاق لصعوبة عمله ، ترفع ثوبها . تهرش ساقها ، قملة أو بقة ، العمارة تخلو من هذه الحشرات ، لاشك ، تسأله .. هل تناولت عشاءك ؟ واذا قال لا ستتحنى على الموقد ، تضغط الكباس مرات ، تبذل عدة محاولات حتى ينتظم لهيب الموقد لا .. لا يريد ان يأكل ، تنظر اليه بدهشة وأعياء . قال انه تناول طعامه أول الليل بعد شعوره بجوع مفاجىء ، بسرعة يعلو شخيرها المتقطع ، ستوقظ نفسها بنفسها بعد لحظات ثم تروح فى النوم حتى يطلع الصباح ؟ سيركب الاوتوبيس المخصوص الذى لا يسمح فيه لرجال الشرطة بالمجان ، مثل هذه الخفقة القوية لم تواته منذ سنوات ، قبل ان يوغل فى النوم هز سعدية ، طلب منها ان توقظه مبكرا ... لكنه حتى الثالثة من ظهر اليوم التالى لم ير نعيمة ، هل خرجت فى الصباح ولم تعد ؟ هل انهت كوكيتا خدماتها ، لو صح هذا فما أتعس الحظ وأميل البخت ، جاء الحزين ليفرح فلم يجد مطرحا ، فى الثانية الا ربعا افرغ المصعد ثلاث فتيات ، قالت احداهن انهن سيصلن قبل

موعد الانصراف ، قالت القصيرة انها تخشى الزحام ، ارهف السمع .. ابتعدن ، لم يحاول متابعتهن مع انه علم عند صعودهن انهن متجهات الى كوكيتا ، اين نعيمة؟ ماذا تفعل ؟ هل ترقبه من مكان خفى ، انه يدقق النظر فى الداخلين والخارجين بحثا عن نعيمة ، عندما لفته الوحدة ، ولم يبد لعم عبده أثر صعد الى الطابق الثامن وعلى مهل نزل الى السادس ، أبواب الشقق الأربعة موصدة كأنها لا تؤدى الى شىء فى الحارة ، يمكنه الاصغاء الى همسات جيرانه من غرفته ، ألم يعش لحظة بلحظة تلك الليالى التى تلت زواج يوسف الحداد ومحاولاته المستمرة مع محاسن الحلوة ، الشابة التى راحت تنشج كلما اقترب منها وتصده عنها ، فى آخر ليلة سمعه يقول بغيظ سأشكو الى امك ، فيما تلى ذلك من ليال لم يسمع الا صوت خرير المياه المنسال من الحنفية قرب الفجر عندما يصطدم بقعر الصفيحة الفارغة ، ثم يخفت تدريجيا كلما امتلأت بالماء ، لكنه هنا امام بروج مشيدة يصعب اختراقها بالنظر والاصغاء ، لم يطل وقوفه ، لديه تعليمات مشددة الا يكشف عن شخصيته ، بعد هذا العمر بعد كل مارأى من نساء قاموا بالقبض عليهن هل يجرى وراء خادمة ؟ هز رأسه ، البنت تستحق والله ، هنا نعيمة تعيش فى بيت يوقن من طبيعة مايجرى داخله ، لا يدرى أى شىء خفى يشده ويوثقه ، أوغل الليل والحركة خفت من الطرقات ، تباعد صوت مرور المترو القريب ، منذ لحظات عاد شكرى بك وحيدا ، قال للسائق تعال الى فى الخامسة غدا ، لم تظهر نعيمة حتى اللحظات الأخيرة التى اختفى فيها عند منحنى الحديقة ، شقة كوكيتا غارقة فى الأضواء وكأنها ذهبية فى الليل ، ترى أين تنام نعيمة ؟ ومتى تصحو ؟ وماذا تفعل الآن ؟. غير أن قلبه اختل بالرضى فى اليوم التالى حوالى الثالثة ظهرا ، رآها،كان يولى وجهه الى الطريق عندما استقر المصعد وخرجت منه ، عندما وقفت فى المدخل لفته رائحة غريبة جسدت له تعبه ، وارهاقه ، ورغبته المضنية فى الاستحمام ، والتخلص من رائحة عرقه ، وحلق لحيته على الرغم من حرصه على نعومتها حتى لا يسمع كلمة زجر من أحد الضباط الشبان الجدد الذين يتمسكون بالمظاهر ، ويبدون ملاحظاتهم حول الكبيرة والصغيرة حرصا على تأكيد سلطانهم ، انها تشير اليه ، اليه هو ؟ نعم ، يخطو ، فى زينتها استعداد

خاص للقائه ، انها اجمل من المرة السابقة ، انها رحبة ، مريحة ، واعدة ، يداه ، فى جيبى معطفه ، ماهذا ؟ انها حركة تصحب تقدمه الى أحد الأوكار ، ربما تلحظها،يشعر بالحيرة بعد أن أخرجهما ، يعقدهما امام صدره ، تقول باختصار حلو مصحوب بتساؤل من الحاجبين ..

أكلت ؟

بسرعة وكأنه يشكو ..

لا ..

تتقدمه الى المصعد ، يتمكن بعينيه من اهتزاز ردفيها ، كالفرس ، تورق داخله الرغبة ، يسألها ، الى أين ؟ تقول بابتسامة وثيرة انه معها . هل رآه أحد عندما أمسكت معصمه ؟ بماذا يفسر ذلك لو سأله أحد الضباط ، لا .. لن ينتظر حتى يقولوا له ، لماذا الصعود مع خادمة كوكيتا ؟ سيكتب كل شىء فى التقرير ، توثيق علاقته بنعيمة من مصلحة التحريات . سيبهر الادارة بما سيقدمه من معلومات ، سيثبت انه جدير بالخدمة فى المناطق الراقية ، هذه المرة الأولى التى يخرج فيها الى منطقة كهذه ليست الأخيرة ، كل شىء سيذكره ، أما هذه النظرات الندية والدغدغة التى تسرى تحت جلده فليست معلومات ، انها مشاعر لن يرصدها بشر ولن يرقبها جهاز ، عندما تجلس احداهن للتحقيق ، هل يدون كل منهم مشاعره تجاه المرأة اذا كانت جميلة أو صغيرة ، ثمة خواطر تعبر ذهن كل ضابط وعخبر ، لكن لا يذكرها احد فى أوراق . سيعرف من نعيمة اسماء المترددين ، سيبدو هذا مبهرا ، انها تنظر اليه ، لا يدرى .. لكنها تقاطعه بوضع يدها على فمه ، توشك أن تلتصق به لكن ثمة مسافة فاصلة ، تقول هامسة ان المدام نائمة الآن ، كذلك أقاربها ، انها بمفردها انتهزت الفرصة لتنزل اليه ، سيأكلان لقمة معا ، انها المتصرفة فى البيت أثناء غياب أو نوم المدام كوكيتا ، لكن ماترجوه الا يعرف عم عبده بمجيئه ، هز رأسه ، أوشك أن ينسى ماقاله عن قرابته لعم عبده ، تفتح الباب ، الى انفه الذى انهكته رائحة المجارى والعطن تنفذ رائحة عطر خفية تختلط بالظل الظليل ، المدخل فسيح ، فانوس من النحاس

المشغول يهمس بالضوء ، مرآة بيضاوية مذهبة الحواف تستند الى طفلين من الابنوس الأسود ، نبت من ظهر كليهما جناحين ، يعبر الممر الضيق الذى يلى المدخل ، فى أركان الصالة المتباعدة مقاعد فسيحة ، يعبر الهدوء خاطر كالبرق ، بماذا يفسر وجوده داخل البيت لو هوجم البيت الآن ؟ يصغى الى بقايا الأصوات القادمة من الخارج ، يبدو العالم بكل مافيه بعيدا ، هذا أمر صعب الأحتمال لأنه لم يقدم بعد التقارير الكافية . ولأن مأموريته لم تنته بعد ، لم يتصور انه سيرى ما يحيطه الآن ، المدام تنام فى هذا البيت ، لم يرها حتى الآن ، يجتاز ممرا قصيرا يؤدى الى المطبخ ، انه مكان فسيح ، أبيض ، نظيف ، فى الركن الايمن ثلاجة ذات بابين . فوق القيشانى اللامع الصقت صور صغيرة لاطباق طعام افرنجية ، تفتح نعيمة الثلاجة ، ياه ... طعام ، طعام فى اطباق ، طعام فى معلبات ، جبن اصفر ، جبن أبيض ، جبن ملفوف فى ورق معدنى ، صفوف من زجاجات الويسكى ، البراندى ، الجن ، وأنواع أخرى لم يرها بين سائر المضبوطات التى تم الاستيلاء عليها من الملاهى والأوكار ، لمبة حمراء مستديرة تضىء مقدمة فرن البوتجاز ، تفرغ قالب المكرونة المشوى ، تنثر فوقه الجبن الرومى المبشور ، تضع طبق الكوسة ، طبق آخر به أكثر من كيلو لحم مقلى فى السمن ، والمكرونة ، خيار مخلل وباذنجان أسود تقول انها ستشاركه حتى لا يخجل ، على الرغم من انها أكلت منذ قليل ، يسأل عن مذاق الكوسة ، تقول انها بالباشاميل ، انها أكلة المدام المفضلة ، لا تمل منها أبدا . يهز رأسه ، لن يسأل اية اسئلة عن المدام حتى لايثير الشكوك الآن ، لكل شىء وقته ، يتراجع الى الخلف رافعا يديه ، تصحبه الى خارج المطبخ ليغسل يديه ، تغلق باب الحمام يتلفت حوله ، يصلح للنوم وليس لقضاء الحاجة ، الأرض مغطاة بسجاد قصير الوبر . فوق الحوض رف زجاجى عريض ، فوقه علب ، معاجين ، أدوية ، فرش لغسيل الأسنان حوالى أثنى عشرة فرشاة ، زجاجات مختلفة الأحجام ، يغسل يديه بالماء الساخن ، يتكاثف البخار فوق المرآة المعلقة،الغبار ملاصق لوجهه ، لكم ترهقه الساعات الطوال التى يقضيها فى العراء ، يقف ساعات أكثر من جندى المرور ، لا أحد يشعر ، لاأحد يقدر ، واذا ذهب الى الادارة سيجدهم فى بيوتهم ، يغسل وجهه ، الماء فى الحوض

يتحول لونه الى بنى غامق بعد مروره على جلده ، يستدير حوله ، هل من فوطة لتجفيف الوجه ؟ يتصرف بحرية لا تواتى الانسان الا فى مكان مغلق كدورة المياه ، يتناول ورقا من صندوق ملون ، يجفف الماء ، كل شىء ، نظيف هنا ، يخشى ان يقضى حاجته ، لايرى مقبضا لصندوق الطرد ، انه يجلس الآن فى المطبخ ، يتناول الشاى ، تقول انها رأته جدعا أبن حلال ، لفت نظرها من اللحظة الأولى ، عندما عرفت انه قريب عم عبده قررت ان تدعوه ، قالت انها من مصر ، لا تعرف لها بلدة ، نشأت عند المدام ، لا أهل لها الا المدام ، انه يرفع حاجبيه بدهشة قائلا ، انها متقدمة فى العمر ، تضحك ، تعتدل فتبدو طلائع الفخذين ، انها لا تدرى عمر المدام ، لكن من يراها سيجد انها أكثر شبابا منها ، ان شعرها أسود غطيس ، ووجهها ناعم ، وقوامها .. اسم الله ، ماشاء الله ، ان الذين يخطبون ودها بلا حصر ، يهز رأسه والراحة تتمدد داخله ، الطعام جيد ، والهواء معقم ، والبنت تحدث فيه ازيزا خفيا ، يقول انه اثناء وقوفه مكان عم عبده سأله الكثيرون عن المدام .. يبدو ان معارفها كثيرون ، تتراجع نعيمة ضاحكة ، يزداد الأزيز داخله قوة ، تقول ان أحباب المدام بلا حصر وانهم يسدون عين الشمس لو قضى ساعة واحدة بجوارها لرأى الأحباب من الشرق والغرب ، رجال ونساء وبنات ، اساتذة جامعة ، رجال أعمال ، مقاولون ، انه يفتح فمه قليلا فى لهجة نعيمة شىء غامض لا يقدر على الامساك به ، يسألها عن عمل المدام ، تنثنى ، توليه ظهرها ، « كالفرس » تقول انها حبيبة الناس كلهم ، أليس هذا كافيا ؟ يرن الجرس ، رنة واحدة ، يقوم واقفا ، يهرع الدم من قلبه الى شرايينه ، تبتسم نعيمة ، هذه الضحكة الغامضة ، المحيرة ، ام انه مخطىء ، تقول ان هذا ميعاد حسين بك ، تقول انه أحد معارف المدام ، صاحب عدد كبير من التوكيلات التجارية العالمية ، يقضى فى القاهرة أياما معدودة كل شهر ، فى هذه الأيام القليلة يتردد هنا بأنتظام ، يحب امرأة كالقمر ، صحفية بجريدة الى القول المركزية ، لا يمكنه رؤيتها فى مكان عام ولا يقدر على تأجير شقة وكتابة عقد بأسمه لانه متزوج ، تستضيفهما المدام ، يهز رأسه ، وهل يجىء كل أقارب المدام مع معارفهن ؟ ترفع حاجبا وتخفض الآخر ، بالضبط .. أفهمتها لوحدك ؟ تخرج ،

يصغى لا يسمع أى هسيس ، لكن احساسا خفيا لديه ينبئه بان شخصا دخل البيت ، تعود نعيمة ، يتقدمها الشذا الذى يبعث موبجات فى دمه تشب على اطرافها ، تلصق شفتيها بشفتيه ، تلفه نشوة ، ويحركه مرح جديد عليه ورغبة فى الصياح ، ومباهاة الخلق ، لم يعرف هذا من قبل ، لا يقبل سعدية ، يتم كل شىء بينهما فى صمت ، تتراجع نعيمة بعد أن شيعت اليه الدوار ، تتمنى لو قضت معه وقتا أطول .. لكن البك فى حاجة الى فنجان قهوة ، ثم تجهز الحمام للمدام كوكيتا التى ستصحو بعد ساعتين ، يتساءل قلقا .. وهل سيبقى البك بمفرده ؟ تبتسم ، تداعبه ، هل بدأت الغيرة .. على العموم ستصل رفيقته الصحفية حالا ، انها تجىء متأخرة دائما ، ويحلو لها ان يعاتبهافى المساء ستتكلم الى المدام بعد ان تشرب ويشعشع الخمر فى رأسها ، وتتمايل طربا ، قبل ان تبدأ الدندنة والغناء بصوت خفيض ستحدثها عنه ، ستقول لها انه يساعدها فى قضاء الحاجة ويحميها من مضايقات الشبان ، ستطلب منها السماح بمجيئه فى أى وقت بدلا من حضوره هكذا خلسة ، ان طلبات نعيمة لا ترد فى هذا البيت ، تتقدمه الى خارج المطبخ ، تقول انهما سيقطعان الصالة فى هدوء . عند عبوره فوق السجادة الوثيرة حرص على انتقاط ملامح البك ، قصير ، بدين ، بدا أنه لم يسمع التحية .
امام العمارة استنشق الهواء وانتبه للمرة الأولى الى متعة التنفس ، ود ان يتحدث الى أى مخلوق ، لكنه محافظ بعزلة لا يبددها صمت عبده ، أى فرصة اتيحت له ؟ لا يحلم بها ضابط يقوم بالمراقبة ، لكن الحذر ، الحذر ، سيكتب كل شىء فى التقارير ، انه فى مهمة رسمية ، وهدفه يتحقق ، وكل مايطلب منه سيلبيه .. ماذا يعيبه اذن ؟ لم يتأخر هذه الليلة ، طلب من سعدية ان تعد له لقمة بسيطة ، قالت انها لديها بيضتين مسلوقتين ، أومأ برأسه ، الأنفاس الثقيلة تزحم الحجرة ، فكر ان يطلب منها فتح النافذة ، ستقول ان الدنيا برد والعيال سيصيبهم البرد .
هل ينفع الندم بعد هذه السنوات من الزواج ، ربط نفسه فى سن مبكرة ولم يعش ايامه ولم يعرف الدنيا ، ولم يمر بما يسمعه ويراه ، تقول سعدية ان البيضة تباع بخمسة قروش ، لم يرد ، ستقص عليه حيرتها فى تدبير أمورها بالقروش القليلة التى تركها لها ، وأسعار الخضار ، والطماطم العفنة التى تقبل النسوة على شرائها

لرخصها ، وأم سعيد التى تقطع مشوارا كبيرا حتى سوق الباطنية لتشترى الباذنجان بأقل من السعر الذى يبيع به الخضرى ، أما هى فلا تستطيع المشى لأن ساقيها تؤلمانها .. لا شىء جديد ، ولا ثوب تفاجأ به ، حتى وجهها لا تغسله ، مع انه لديها الوقت الكاف قبل عودته ، لاتفعل ذلك الا يوم الخميس فقط وكأنه واجب روتينى ، أثناء تناول الطعام ستفتق بصوتها ، ستلت اللقمة فى فمه ، ويفقد طعم صفار البيض،لو يغمض عينيه فيرى نعيمة ، سعدية تضع الصحن امامه ، تتراجع وتنظر اليه صامتة ، ان يدا تقبض قلبه ، كيف طاوع نفسه على الاسترسال فى تفكيره حتى يتمنى اختفاءها من حياته ، كيف تمنى ان يعود يوما فيجد زحاما وضجيجا وتهرع احدى نساء الحارة اليه صارخة ، تطلب منه ان يشد حيله لان الموقد انفجر فأحرق سعدية والولدين،انه ينظر الآن الى انحناءة كتفيها ، انه لايعرف شيئا من البيت ، تدبر أمورها ، لم تستدن ولم تورطه فى مطالب لا يطيقها ،، تتصرف ، تدبق ، زملاءه يشكون دائما ، اما هو فلا يشعر بوطأة الدنيا ، عندما خصم منه مبلغا فى احد الشهور لم تطالبه بما اعتادت ان تأخذه ، عرف فيما بعد انها اختصرت طعامها الى وجبتين لكنها لم تنقص شيئا مما تقدمه اليه لانه يجرى على الأولاد ويشقى عليهم ، يجب ان يجد ما يرمم عظامه ، ويبل ريقه ، ان موجة حنان تجرفه الى سعدية ، لو جاءته نعيمة هذه سينهرها ، لن يستجيب اليها ، حتى لو امره الضابط بدخول البيت فلن ينفذ الأمر ، فى الصباح ايقظ ولديه ، وداعبهما ، قرص عمر ، عند وصوله الى منحنى الحارة استدار الى الخلف ، سعدية تطل عليه من نافذة الحجرة ، امام العمارة اجاب بجفاء على تحية عم عبده ، فى حوالى الثالثة وهو موشك على اغفاءة دهمه خاطر يقول انه فى مثل هذه اللحظة منذ اربعة وعشرين ساعة كان يشم جسد نعيمة من قرب ، لم يبد لها أثر حتى الآن ، توقع ظهورها لتدعوه ، وليرفض ، لم تظهر اليوم ، متى يقول لها اذن ماقرر قوله ؟ ولماذا لم تأت ؟ ماذا كان الهدف من دعوتها له بالأمس ، هل يوجد هدف خفى ؟ هل قصدت تعريضه لموقف يحاسب عليه فيما بعد؟ لماذا لم تحضر اليوم ؟ هل كانت تعبث به ؟ لكن ... ألم يقس على نعيمة ؟ ألا يسىء الظن بدون دليل ؟ ألم تعرض نفسها للخطر من أجله ؟ هل نسى نظراتها اليه ؟

قبلتها الهامسة ، الطويلة ، هل سمع عن امرأة بادرت بتقبيل رجل الا اذا كانت مولعة به ؟ لو جرى ذلك لغيره لتباهى ، واليوم لم تظهر ، وبدلا من ان يسأل عنها ، هاهو يسىء الظن بها ، أهذه أصول ؟ فى هذه اللحظة طرحت الرغبة وأثمرت ، يريد رؤيتها ، سماع صوتها استنشاق وجودها الخفى المشع حول جسدها البض ، لكن اذا لم تفتح له ، ألم تقل له ان كوكيتا تنام فى هذه الساعة ، وانها ستطلب منها السماح له بالتردد ، يضغط الجرس . يفتح الباب ، نعيمة ، تومىء برأسها ، تسأله هامسة ، لماذا تأخر ؟ لم تخرج الطعام مباشرة ، انما أمسكت زجاجة ويسكي من الحجم الكبير ، يعرف الصنف جيدا ، والسعر ، لطالما كتبه فى كشوف المضبوطات ، من يدرى الى اين تذهب المضبوطات ؟ لم يذقه أبدا ، هاهى الفرصة ، مع الرشفة الأولى توهج فمه بمذاق لاذع سرى فى الأعضاء حتى استقر عند سقف الرأس ، يزيد من الجرعة ، يخلع المعطف ، تتناوله نعيمة ، الحذر ، الحذر ، لن يشرب الى الحد الذى يفقد فيه الوعى ، لكن يجب الا يبدو امامها بلا تجربة ، ان طبقة لينة تحل بين مفاصله ، سكينة تتسرب اليه يشرع فى الحركة لكنه لا يحرك طرفا ، تنحل عقدة سوداء ، ضئيلة الحجم لكن ثقيلة الجرم ، تسبح فى جسده ولا ترسو عند فكرة معينة أو كدر ، تميل نعيمة فيرى منبت النهدين ، متى يدلكهما باصابعه ؟ تقول انه يمكنه ان يجىء فى أى وقت وأن يبقى كيفما يشاء ، المدام لم تمانع لانها لا ترفض لها طلبا ، يحيطها بذراعيه ، الجسم هش ، لا يمانع ، لكنها تبتعد، وشفتيها متباعدتين تطلب منه ان ينتظر ، الى متى ؟ الى متى والجدران تتمايل ، والجماد ينتشى ، تقول ان المدام كوكيتا ستسافر خلال أيام الى بورسعيد لتشرف على استلام شحنة أجهزة كهربائية ، ولوازم منزلية ، وسيارات ملاكى ، ثم تعود .. يمسك مسندى المقعد ، اذن فالقطاف ليس ببعيد ، يرن الجرس ، يجىء أربعة أشخاص،رجلان ، وامرأة ، وفتاة ، انهم من العاملين عند المدام كوكيتا ، الفتاة مضيفة فى شركة طيران وتشرف على عدد غير معروف من المضيفات الأخريات العاملات فى عدد من شركات الطيران الأجنبية كلهن يقمن بتوريد الويسكى ، والعطور الباريسية ، والساعات السويسرية والمجوهرات ، والأطقم الفضية ، والآلات الحاسبة ، والمعدات الصغيرة الالكترونية ،

تقوم كوكيتا بتوزيع البضائع على البوتيكات التابعة لها فى شارع قصر النيل ، والشوارف ، وروكسى ، والاسكندرية ، أما المرأة فهى مصممة ازياء معروفة تظهر صورها فى المجلات وفى البرامج التى تعرض أحدث الموديلات الشتوية ، وقصات الشعر الأمريكية ، أما الرجل فمدير أحد البنوك الأجنبية ، والثانى صاحب معرض سيارات حديثة وعصرية ، يتساءل بلسان مثقل ، اذن فثروة المدام كوكيتا كبيرة ؟؟ تقول نعيمة ان أموالها لا تحصى ، لديها مجوهرات نادرة ، واثقال من الذهب ، نزولها الى سوق الذهب فى الصاغة يحدث هزة فى السعر عند كل الباعة ، لو اشترت يرتفع ولو باعت ينخفض ، تملك مساحات من الأرض فى الأسكندرية والبحيرة ، وبعض محافظات الصعيد ، وسيارات تاكسى ، وشقة فى لندن ، لكن رصيدها فى البنوك صفر ، لأن كل مليم يعمل فى أحد المشروعات .. وتسكت نعيمة فجأة ، تنظر اليه ، تقول ان اسئلته كثيرة ، يحملق ، هل اخطأ ؟ تبدو نعيمة رحبة ، واعدة ، يقول انه يريد معرفة كل شيء يحيط بها لأن حبها تغلغل فى قلبه ..

فى اليوم التالى سأل نفسه ، ماذا سيجرى لو زاد من جرعة الويسكى ؟ تقاربت الجدران ودنا السقف ، وانسالت نعيمة الى عروقه ، خلت الدنيا من الخوف المفاجيء الذى يبعثه ظهور الرتب الكبيرة ، وتساءل ، الم يكن جديرا باحتلال منصب ، أو العمل فى تجارة ؟ هاهو يكسب المئات فى صفقة واحدة ، يرى ورقة من فئة الجنيه ، وأخرى من فئة العشرة قروش ، جنيه فكة ، وجنيه صحيح ، رأى ضابطا برتبة ، وجنديا بدون رتبة ، كان يجب ان يصبح من هؤلاء الذين ينفقون ما يريدون ، لا مايجب انفاقه ، رأى حديقة بدون خضرة ، وخضرة بدون حديقة ، مصباحا بدون ضوء ، وضوءا بدون مصباح ، رأى مسجدا بدون مئذنة ، ومئذنة معلقة ، أى طنين فى اذنيه ؟ تقول نعيمة ان كوكيتا امرأة بحبوحة ، عرفت مر الدنيا وحلوها ، وهى تحب رؤية الأحبة مجتمعين تحت سقفها ، يغمض عينيه ويفتحهما ، أى طنين ؟ كيف طاوعه قلبه على أن يسبب الضرر لهذه الكوكتاية ؟ لعن الله الأوامر والتحريات وهذا الفخر الذى شعر به عندما جاء الى هنا لأول مرة

لأنه يراقب الوجهاء ، وذوى المناصب ، ها .. يقف ساعات طويلة فى البرد وهم يمرحون وينعمون بين الجدران الوثيرة ، الا يشبه حارس المتعة ؟

فى ذلك اليوم تركته نعيمة فى المطبخ ، ثمة رجل قادم يستنفر البيت كله ، يجيء بالطائرة من بلاد بعيدة ، تعلن الصحف عن وصوله ، ويبدو لمن لا يعرف انه قادم لانجاز مهام معينة ، لكنه يقصد كوكيتا لانها توفر له مالا يستطيع أحد توفيره له،هذا الرجل تجاوز الستين ، عندما يجيء لا يرغب فى تواجد أى رجل فى البيت ، أو رنين جرس التليفون ، أو فتح النوافذ ، لكن لاضرر من بقائه فى المطبخ ، هو ليس ممن يخشاهم سموه ، قالت انه يهوى الابكار ، يفضلهن فى السادسة عشر ، تلميذات المدارس الأجنبية ، وياسلام لو ان الأب أرمنى أو يونانى أو اوربى .. خواجة يعنى .. والأم من بنات العرب ، يحب مجيئهن فى ثياب المدرسة ، يحملن حقائبهن يخاطبن المدام أمامه « ياأبلة » يقول آه لو امشى مع هذه الحلوة فى شارع الكورنيش .. ياسلام .. لكن ليس ماق كل النفس يدركه المرء .. تغمز كوكيتا للبنت البكر وعندما يتزايد خجل البنت يبدى سرورا ، يلعق شفتيه ، يرفع يديه ليزيح اكمام الجلباب الأبيض الواسع الى الخلف ، ربما يخرج هدية ثمينة لكن الفتاة تتمنع ، ترفع عينيها الى كوكيتا التى تشجعها .. خذى من سموه .. قبل ان تذهب الى الغرفة الداخلية تقبلها المدام بحنان وتطلب من الأمير ان يترفق بها ..

ضحكت نعيمة وقالت انها لن تبخل عليه بأدق الأسرار ، ماذا يحدث فى الداخل ؟ ان الأمير يجلس فوق السرير ، يتطلع الى البنت ، يتنهد ، ثم يلمس وجنتيها ، ويعاود النظر ، فجأة يبكى ، ويضرب ركبتيه بقبضة يده متحسرا ، وبعد ان يشبعها عضا ، وركلا ، يفتضها بأصبعه ، فى احدى المرات قال مستشار سموه ان الأمير ابدى ارتياحا لأن البضاعة ليست مغشوشة ، ضربت المدام صدرها بيدها كيف يتسرب الشك ؟ لكن المستشار حاول ان يهدئها ، قالت انها لا تحضر الا مايريده بالضبط ، انها تستعرض وتختار ، وتجرى تصفية دقيقة ، كما تجرى

تحريات دقيقة حوفن بمساعدة ذوى التخصصات للتأكد من ماضى كل منهن ، انها تدفع مرتبات شهرية للمشرفات والعاملات ، وشبان من عائلات محترمة ، وشخصيات اخرى لا داعى لذكرها ، أو الافصاح عما تحتله من مناصب ..

فى طريق العودة الليلى ، وبعد تبخر آثار الويسكى تساءل .. لو تعرف نعيمة حقيقة المهمة التى جاء من أجلها ، ان رعدة تشمله اذ يتذكر نظراتها اليه وقولها « انت استلتك كتيرة .. » لكن لو شكت فيه هل كانت ستبوح له بأدق الأسرار سيتعجب الضباط من قدرته على النفاذ الى البيت عندما يقدم اليهم التقرير الشامل ؟ الآن لا يذكر الا مايمكنه ان يراه من مدخل العمارة . لن يصف كوكيتا الا عند سفرها الى بورسعيد ، حتى الآن لم يرها ، سمع صوتها فقط ، انها تستيقظ من نوم العصارى ، تجلس فى الصالة ، تمسك أحد المراوح الدقيقة ، انها مغرمة بهذه المراوح ، فى العام الماضى أهداها رجل أعمال يابانى مروحة رقيقة من الصدف المطعم باللؤلؤ . من مكانها فى الصالة وعبر التليفون تدير كل شىء،بعد انصراف المعارف والأحباب تحتسى مشروب الجين المضاف اليه عصير الليمون ، تتأوه ، تمصمص شفتيها ، ثم تطرق وقد تنام مكانها ، كان يظنها أصغر سنا ، لكن نعيمة قالت ان عمرها الحقيقى يتجاوز الستين ، لكن من يراها يظنها اصغر من ذلك بعشرين سنة ، جاءها شاب فى العشرينات ، أبن أحد المصدرين الأساسيين ، حمل معه توصية من صديق عزيز للمدام فى الجمرك ، لا تخوض كوكيتا مباشرة فيما جاء الضيف من أجله ، تقدم له الويسكى والطعام ، ثم يجرى الحديث على مستويات مختلفة ، حملق اليها الشاب طويلا .. ثم قال ان هدفه ومناه أمامه ، نعم .. يريدها هى ، ظنها ستلين له لتقدمها فى العمر ، لكنها ربتت كتفه بيدها ، نادته باسماء الدلع ، ثم صرفته ، وطلبت منه الا يدخل البيت مرة أخرى ، بعد شفائها من مرض قالت لنعيمة ان الطبيب راح يتعجب ويقول انها أكثر صحة من فتاة ، انها سليمة وجواهرها لم تصدأ ، كوكيتا عزيزة المنال وليس كما يظن البعض .

انه يقطع الطريق على مهل ، يفاجئه خوف غامض كلما تذكر كوكيتا ، انه يحار ، لماذا تمارس هذه المهنة التى تجر عليها الخراب .. لكن أى خراب يفكر فيه ؟ عندما دق جرس الباب أول أمس نظرت اليه نعيمة وطلبت منه ان يفتح الباب ، أبدى ترددا ، قالت انه لم يعد غريبا ، عبر الصالة الهادئة المعطرة برائحة خفية فوجىء بالضيف يدخل على الفور ، لم يسأل عن كوكيتا ، لم يلفظ حرفا ، انما دخل على الفور ، خيل اليه ان شخصا كان يرافق الضيف ثم اختفى بعد فتح الباب ، عبرت ظهره قشعريرة ، أكدت نعيمة انها لم تكن تعرف انه هو القادم ، انه الوحيد الذى يجىء فى أى وقت ، وتصحو كوكيتا من نومها لتجلس اليه ، تذكر الطريقة التى خاطبه بها ، واستدارته ، قال له أحد أصحابه مرة انه لايخشى ضابط الشرطة الذى يرتدى الزى الرسمى ، لكن مايبعث على الخشية هؤلاء الضباط والجنود الذين يختفون داخل ثيابهم المدنية ، فى مواجهة هذا الرجل أوشك أن يقف متصلبا ، ان يخبط قدمه فى الأرض ، ويؤدى تحية لا يجاب عليها فى كثير من الأحيان ، تأدية التحية بالنسبة له كالتنفس والمشى ، أما الرد فكرم من الطرف الآخر ، غير ان مأموريته لم تخلو من منغصات ، فى تلك الليلة اقترب منه جلال بك زوج نفيدة هانم ، ساكنا الطابق العاشر ، هش الرجل وبش وقال انه يريده فى كلمتين ، قال الرجل بعد ان انتحى به جانبا انه يراقبه منذ فترة ، وانه علم بطرق مختلفة انه مخبر من مباحث الحفاظ على الأخلاق وانه جاء الى المنطقة ليراقب كوكيتا .

قاطعه بسرعة :

« غير صحيح .. »

« من حقك ان تنكر ، فالشرطى السرى يجب الا يعرف انسان حقيقته ، ثق انه لايعرف أحد غيرى ..

على اية حال اذا كنت فى حاجة الى أى شىء .. الى أى معلومات أنا تحت أمرك .. هذه المرأة بؤرة فساد .. كم خربت من بيوت .. شد حيلك ..

من أين عرف الرجل ؟ كيف ؟ يعتبر مكشوفا الآن ، هل يبلغهم بذلك ؟

بعد فترة من الوقت قرر أن يؤجل ذلك الى مابعد سفر المدام الى بورسعيد ، وحتى يرى ماسيحدث مع نعيمة ، عاد الى بيته متأخرا ، تنفس امرأته يقلقه ، كيف احتملها طوال هذه السنين ؟ وعندما طلبت منه ان يحاول العودة مبكرا بعض الليالى ليجلس الى الولدين ، علا صوته حتى أوشك الجيران على التدخل لتهدئته ، الا تعرف طبيعة عمله ، الا تعرف الشقاء الذى يلقاه حتى يوفر لها ولولديها الطعام ، اغمض عينيه واستدعى نعيمة ، حن الى جرعات الويسكى التى تنفس الخوف ، وتزيح عنه الهموم ، البنت تزداد تعلقا به ، تداديه ، تناغشه ، لا تبخل عليه بشيء ، أعدت له طعاما مخصوصا وأكثرت من السمك عندما أبدى تفضيله له على سائر الأصناف ، قدمت له المقلى والمشوى والصوانى غير انها لم تعطه ماتمنى ، ارجأت تنفيذ الوعود الى سفر كوكيتا .

فى الصباح جاءت أم صبحى الى امرأته ، وقالت الواحدة منهن لا يمكنها ان تعرف مايتعرض له الرجل من مضايقات ، حتى لو قسا فعليها ان تحتمل من اجل كوم اللحم الذى ترعاه ، نهنهت ، دمعت ، قالت انها لم تقل له شيئا يثير ضيقه وغضبه .

فى ذلك اليوم لم يصدق عينيه عندما رأى المدام اجلال ساكنة الطابق العاشر ، قالت نعيمة ، ان دهشته تعنى انه رجل خام لم يعرف الدنيا بعد ، ان كوكيتا تسيطر على سبع نساء فى العمارة ، لايجئن الى البيت من اجل اصحاب معينين انما ليضعن انفسهن تحت تصرف كوكيتا التى تقدمهن الى من تشاء وتختار ، قالت نعيمة ان سيدتها تأسر الأرواح ، كل من يعرفها يقع فى هواها ويخضع لها ، باستطاعتها ان تخرب بيوتا عديدة ، لكنها لاتفعل الا اذا لاح الخطر وظهر الشر ، كلما تزدد أكثر ترى العجب ، قالت نعيمة انه لديها مظروف يحوى صورا من جميع مايرسل ضدها من شكاوى ، حدث ذات مرة ان امرأة راحت ترسل البلاغ تلو البلاغ فكيف ردت عليها كوكيتا ؟ بحثت طويلا حتى

اكتشفت ان زوجها يعمل باحدى امارات الخليج ، ارسلت الى أحد معارفها الذى قام بعمل اللازم وتولى ترحيله خلال ساعات ، ان قرصة كوكيتا تؤدى الى القبر ، يحدث بين الحين والحين ان بعض الضباط الشبان الفرحين بالنجوم المتلألئة فوق اكتافهم ، الذين لم يجربوا الحياة بعد يحاولون مضايقة كوكيتا ، لا يسلم احدهم ابدا ، واحد ممن أرسلهم أحد هؤلاء الضباط ضمته المدام اليها ، اسرته برقتها ، وكرمها ، وما ابدته من صدق ، لدرجة انه كان يطلعها على كل مايكتبه ضدها من تقارير قبل ان يسلمها الى رئاسته فتجرى فيها من التعديلات ما تشاء ، بل انها طلبت منه زج اسم احدى عميلاتها فى بلاغ عن بيت يدار للدعارة فى العباسية ، امرأة محترمة فى نظر المجتمع ، كانت تسكن هذه العمارة وتجيء الى المدام على فترات ، وعندما بدا منها الغدر افترستها كوكيتا ، ولاتزال فضيحتها تدوى ..

وتوقفت نعيمة ، نظرت اليه ،

« لكن امثلتك كثيرة جدا .. »

فى هذه اللحظات اختفى قلقا وابتسم مرددا انه يريد ان يعرف كل شيء عن نعيمته ، لكن ضيقا ألم به ، هل تعرف نعيمة شيئا عنه ؟ هذا الخاطر دفع الى البقاء فترات أطول بالقرب منها لعل دليلا يتكشف له فينأى بنفسه قبل الوصول الى حافة الهلاك ، بل ان قلقه تزايد اذ ادرك بعد انصرافه انه لا يتعجل العودة لرؤية نعيمة فقط انما ليحاول تلمس ماينم عن ادراكها لطبيعة مهمته، حاول تهدئة نفسه بانه سوف يقدم كل التفاصيل فى تقرير يرفعه بعد ذهاب كوكيتا الى بورسعيد .

هاهو يقف صباح الاثنين المرتقب فى التاسعة ، تتوقف سيارة رمادية من طراز مرسيدس ، خلفها ، سيارة بيضاء من طراز بيجو ، يظهر رجل يحمل حقيبة ثقيلة كما يبدو من مشيه المتباطىء ، عم عبده يرفع يده ، كوكيتا ، لابد انها هى ، ألا انه لم يستطع تمييز ملامحها من موقعه الذى اختاره ، عند ناصية الحديقة ،

تمشى متهادية ، ترتدى مايشبه العباءة ، الرجل يتقدم ، يفتح الباب ، على مهل تنحنى ، تتحرك السيارة الرمادية ، تتبعها الأخرى ، يخطى بطيئة يتقدم من العمارة متلذذا ، مبتلعا لعابه بين الحين والحين ، مخاطبا دقات قلبه راجيا منها الهدوء ، يود ان تتأجل المتعة حتى يظل الحلم بها قائما ، تفتح نعيمة ، تتألق ، تضوى ، هكذا يجب ان تستعد المرأة لملاقاة الرجل ، تضحك ..

« هل كنت نائما بجوار الباب ؟؟ المدام نزلت من دقيقة »

يحاول ان يمسك ذراعيها ، تشمله رعشة ، وخور غامض حتى يخشى الا يوفق وتصير فضيحة بعد هذا الانتظار الطويل ، يقعد فوق الأريكة ، لأول مرة يجلس فى الصالة الهادئة حيث امتزاج الروائح والظلال والضوء الناعم ، يحاول ان يحتضنها اثناء وقوفها ، يسند رأسه الى انبساط ورحابة بطنها،تقرب اصابعها من فمها ..

« أدخل الحمام .. اخلع كل ماعليك وانتظرنى .. سأدلك ظهرك بيدى ... »

لابأس ، ربما تريد ازالة مالصق به من روائح الحارة وقرف الحارة ، لها الحق ، ينظر الى الساعة ذات الاطار الذهبى ، التاسعة و النصف ، لابد ان الضباط كلهم وصلوا الآن ، سيذكر فى التقرير سفر كوكبنا الى بورسعيد ، لكنه سيضيف أيضا ان تردد البعض لم ينقطع حتى لايصدر أمر بتكليفه بمهمة أخرى ، ينفض مافى رأسه ، ما الذى جعله يفكر فى المكتب والضباط ، والتقارير والممر الطويل الكئيب الذى تصطف على جانبيه الحجرات ، لينس هذا كله مؤقتا ، بجوار الأريكة ، منضدة صغيرة فوقها أطباق صغيرة مليئة بالمرق ، والجبن الرومى ، شرائح الطماطم المطعمة بالبقدونس الأخضر ، لم يأكل افطارا من قبل يتكون من عدة أصناف ، طبق واحد ظل يوضع أمامه طوال عمره .

انه يقف الآن عارياً فى الحمام الملون ، الرف الزجاجى مثقل بانابيب ملونة

وزجاجات وعطور وعلب صغيرة مستديرة ، يتصاعد البخار ، تتغبش صورته فى الماء ، قال لنعيمة انه سيستحم بنفسه جيدا ، أدركه خجل ، لم يعتد ان تدلكه امرأة أو تدعك ظهره ، لكن الباب يفتح ، تقف نعيمة ، تعقد يديها امام صدرها ، يمد يديه ليستر مابين فخذيه ، تضيق عيناها ، ماهذه الابتسامة ؟ ليس التعبير المناسب الذى يسبق ماحلم به ، تستعرضه على مهل ...

« يكفى ياحضرة الصول ... »

• • •

نـــوبة حـــراسة

.. قالوا له .ان اختياره لم يتم عبثا ، ثبتت كفاءته خلال التدريبات ، والمهمات ، التى اشترك فيها ، خاصة جرأته وقوة تحمله وشجاعته ، غير أن موقعه الجديد حساس جدا ، ويحتاج الى يقظة عالية ، ان المبنى الذى سيقوم بحراسته هدف لكثيرين ، خاصة الحاقدين ، يقع فى هذه المنطقة الهادئة البعيدة عن قلب المدينة ، مما يسهل الوصول اليه ، خاصة بالسيارات التى يمكنها الاندفاع بسرعة كبيرة ، ربما ألقيت عبوة متفجرة ، أو جسم غريب ينفجر بعد وقت محدد ، فى كلا الحالتين لابد من اليقظة ، لابد أن يفتح عينيه جيدا والا سيجد نفسه فى خبر كان .. مفهوم ؟ فى ثانية قد تحدث المصيبة ، مفهوم ، عليه أن يلتزم وضع الاستعداد التام ، وأن يحذر الحديث الى أى مخلوق ، ربما تعمد أحدهم مشاغلته ، ربما يعرضه لشم مخدر قوى بواسطة منديل ، أو باشعال سيجارة من نوع خاص ، فى كل الأحوال عليه أن يحذر ، وأن ينتبه الى سلاحه ، ليجعل فقد سرواله أسهل من فقد سلاحه ، مفهوم ؟ قالوا له انه سيقف وحيدا ، لكنه سيكون موضع مراقبة من مكان خفى ، عند الخطر ستنشق الأرض عن النجدة ، فتح النار يجب أن يتم فى حالات الضرورة القصوى ، واذا بدأوا هم ، مفهوم ؟ . لم يتكلم ، لم ينطق حرفا لأنه فى السابق عندما قيل له .. مفهوم ؟ قال نعم ، لكنهم زعقوا فى وجهه ، هل ترد .. هل تجرؤ ؟ تعلم الا ترد ، عندما جمعهم الضابط الطويل المتخرج حديثا من كلية الشرطة ، سأله عن اسمه ، عندما أوشك على النطق ، زعق فيه ، كيف يفتح فمه ، أمره بأن يذكر اسمه بدون أن يفتح فمه ، اضطرب ، عرق حتى غطى البلل عينيه ، اضطربت مصارينه ، لم يدر مايفعل ، تراجع الضابط مقهقها ، لاحظ فى هذه اللحظة انه أبيض ، ناعم الجلد ،

حليق ، نام جيدا ، عندما رآه يضحك لانت عضلات وجهه ، غير أن الضابط تبدل فى دقيقة ، هل تضحك ؟ مما رعبه ، فى هذا اليوم لف الملعب خمسمائة مرة ، بين الحين والحين يأمره بالوقوف ، يعلن انه أخطأ فى العد ، ليبدأ اذن من جديد ، يحدق اليه الضابط وعندما يتطلع اليه للحظة يرى كراهية عجيبة ، وقسوة تبدو فى ملامح الانسان الذى يتمكن من آخر ، ويصبح مطلق اليد فى أن يفعل به مايشاء ، سأل نفسه ، لماذا أنا .. هل آذيته ، لا أعرف الا اسمه الأول ، كثيرا ما أمره بخلع قميصه ، والارتماء فوق الأرض مرتكزا الى يديه وأطراف قدميه ، تمرين الضغط ، بعد المرة الخمسين ترتجف عضلاته وتنفر أوردته ، وعندما يرتعش جسده كله يأمره بالكف ، فى مرة سأله عن الطعام الذى كان يطفحه قبل مجيئه الى وحدات الشرطة الخاصة ، هم بالاجابة ، زعق فيه ، كيف يجيب ؟ انه يسأل فقط ، أمره أن يقيس أرض التدريب بدبوس ابرة ، أمره أن يروى الحديقة مستخدما ملعقة شاى وفنجان كان عليه أن يملؤه من طلمبة يدوية ، أمره بأن يفرز الحجر الذكر من الحجر الانثى ، فى كل مرة لا ينفذ الأوامر بشكل يرضى الضابط ، يلف الملعب مئات المرات ، تعلم الصمت فى مواجهة ما يأمر به ، قالوا له ان التفتيش سيتم يوميا ، فى أى لحظة ولن يرى القائمين بالتفتيش ، ان واجباته محددة ، الدفاع عن المبنى ضد أى هجوم يقوم به الحاقدون ، لو رأى رجلا يقتل الآخر فوق نفس الرصيف ، عليه الا يتدخل ، لو ثارت ضجة بسبب لص أو نشال أو رجل يهاجم امرأة عليه الا يفارق مكانه ، ان مهمته حراسة المبنى ، انه مكون من طابقين ، تمتد أمامه حديقة بها أحواض زهور وكشك خشبى أخضر ، تعلو السور قضبان حديدية سوداء ، قالوا له ، عند حدوث خطر سينطلق تنبيه من داخل المبنى ، اذ يوجد عند اصحابه تليفزيون خاص يرون فيه سعى النمل فى الشوارع المحيطة مباشرة بالمبنى ، على الجانبين تقوم عمارتين مرتفعتين ، يغطس المبنى بينهما ، سكان العمارات تم تسجيلهم ، جمعت كافة المعلومات عنهم ، وعن أقاربهم حتى الدرجة الخامسة عشر ، لكل منهم ملف ، فوق الأسطح المجاورة شرطة سرية لمنع الصعود بحجة شم الهواء أو نشر الغسيل ، عليه أن ينتبه الى المترددين ، أن يرصد أى شخص منهم يتصرف بشكل غير

طبيعى ، عندما جاء فى اليوم الأول وقف على بعد متر واحد من الباب الحديدى ، بجواره نافذة ضيقة محفورة فى السور ، الممشى المؤدى الى المبنى مرصع بالحصى الملون ، الباب الزجاجى يحفه مصباحين قديمين ، تذكر عربات الحنطور الواقفة أمام المحطة فى البندر والمصابيح المعلقة على الجانبين ، يراها عند نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، قبل ركوبه فوق سطح القطار مع عشرات من زملائه ، فى اليوم الأول خيل له انه ما من أحد يسكن المبنى ، خاصة والنوافذ مغلقة ، وفوق السطح ينتصب علم غريب ، لم يعرف الى أى بلد ينتمى ، ومجموعة من الهوائيات الضخمة ، الغامضة التى يراها لأول مرة ، استطاع أن يميز ايريال التليفزيون ، قالوا له انهم يرونه من الداخل ، راح وجاء فوق الرصيف ، عند مروره أمام الباب يسرع الخطى ، ربما ينظرون اليه من خلال شىء ما فى الباب ، أو تلك النافذة الضيقة ، أو بواسطة أحد الهوائيات الغريبة المعلقة فوق ، لكن لماذا يقلق ، أو يضيق ، ليس فى منظره ما يعيب ، السترة جديدة ، استلمها منذ أسبوع ، والحذاء الضخم لم يلن بعد ، حتى انه يؤلم قدميه ، ولابد من مرور مدة حتى يعتاد عليه ، غطاء الرأس فى الوضع المناسب ، لم يستطع قراءة اللافتة النحاسية ، مكتوب عليها بلغة غريبة ، أما اللغة العربية فمتداخلة الخطوط ، لم يستطع تفسير الحروف ، ثم ان قراءته بسيطة جدا ، وما تلقاه من تعليم الزامى هزيل ، لم يتبق منه شىء مع مرور السنين ، نسى الكلمات والحروف أثناء عمله فى نقاوة الدودة ، ثم تلاشى ماتبقى عندما أصبح صبيا للترزى ، وبعد أن اشترى له شقيقه الذى يعمل فى الخارج ماكينة خياطة مستعملة ، واكتفى بها عن العمل كصبى فى دكاكين الترزية ، ولأن سمعته طيبة فى البلدة ، وأبوه رجل صالح ، جاءه الزبائن ، حتى انه قبل ذهابه لتأدية الخدمة العسكرية كان يعمل ليلا ونهارا ، وعندما يمضى فى أجازة الى البلدة ، لا يخلو الأمر من الرزق ، يقضى أيام راحته منحنيا على الماكينة ، أمه العجوز تصر على السهر بجواره ، تحكى له أخبار البلدة أثناء غيابه ، تحفظ آخر خطاب وصلها من الأبن الأكبر الذى يعيش فى غربة ، انه يروح ويجىء أمام المبنى ، ماذا يجرى داخله ؟ من يعيش فيه ؟ لم يستطع أن يخمن ، تذكر ماقالوه ، المبنى خطير ، وهدف للحاقدين ، لم يدر .. أهو سفارة ؟ أم قنصلية ؟ .. أم ..

ماذا ؟ . ركز حواسه على المارة ، وملاحظة المتسكعين ، أو الذين يتكرر مرورهم فى ظهيرة اليوم الأول توقفت سيارة جيب ونزل منها جاويش الفصيلة ، سلمه الوجبة الجافة ، وذكره بضرورة الا يشغله الطعام عن مهمته ، ستمر عليه السيارة فى الثامنة ليلا ، ميعاد تغيير النوبة ، لكن عند الطوارىء ، وعدم وصول البديل ، عليه أن يستعد لمواصلة الحراسة ، حتى مجىء زميله ، مفهوم ؟ ليضع هذا الكلام حلقة فى أذنه حتى لا ينساه ، والا .. فلن يدرى ما سيفعلونه به ، بعد التهام الوجبة أدركه ظمأ ، كيف يشرب ؟ التعيين لم يحتو على مياه ، انه لا يحمل زمزمية ، لا تصرف لهم الا عند طلوعهم الى الجبل لاجراء التمرينات الصعبة ، تسلق جدران ، وعبور لهب ، ومشى فوق الحبال ، لكنهم لم يضعوا الزمزمية فى الحساب ، ربما لانه فى المدينة ، لكن ممنوع عليه الحركة أو الاتصال بالغير ، لا يلمح أى انسان خلف الباب المغلق ، يرى الجنايني ، سيناديه ويرجوه أن يملأ كوب ماء ، لابد أن الجنايني ابن بلد ، أن جفافا يكسو حلقه ، خاطر آخر ، أين يتبول ؟ لكن ما شغله الظمأ ، هل يتراجع بظهره حتى باب العمارة المجاورة وينادى البواب ، لكن .. ربما نحوه من الداخل فى التليفزيون ، ربما جاء الضابط فجأة ، لا يدرى ماذا يفعلون به عندئذ ؟، هؤلاء الأجانب لا رحمة فى قلوبهم ، والواحد منهم لا يعرف أخيه ، فما بالك بالغريب ؟ لم يكلفوا أنفسهم بالنظر الى من جاء لحراستهم ، ودفع خطر الحاقدين لم يرسلوا اليه طبق بطيخ أو قطعة جاتوه . الخفير فى البلدة يخرج له الأكل ويدعى الى الشاى ، وتدخين الحشيش أيضا ، مع انه لا يختص بحراسة بيت واحد ، أخرج لسانه مرات ليرطب حلقه ، يمكنه التحكم فى البول ، تأجيله حتى يختلس لحظة مواتية ، الشارع بعد الغروب هادىء ، خافت الضوء ، يمكنه أن يتخذ وضعا مناسبا لا يوحى لمن يراه على البعد بما يفعله ، لكن الماء ، سيتحدث الى الجاويش عند تغيير النوبة ، بدت له أيام الخروج فى النوبات الجماعية أرحم من هذه الوقفة التى لم يتبادل خلالها حتى السلام مع الآخرين ، يمرون به وكأنه غير موجود ، كانوا يركبون مائة ، أو مائة وخمسين جنديا ، يرتدون الخوذات ، وأغطية الوجه الواقية من الحجارة ، يمسكون

دروع رمادية ، وعصى غليظة ، يصيح الضابط فيهم قبل صعودهم الى اللورى أنهم سيذهبون لمواجهة الحاقدين ، هناك احتمال بتحركهم ، يجب التعامل معهم بدون رحمة ، يعبر اللورى طرقات المدينة ، يقف عند ناصية أو بالقرب من ميدان كبير أو فى مواجهة مبنى رئيسى ، أو فى شارع جانبى ، يطول الانتظار ساعات ، ولا يتبدل وضعهم داخل اللورى ، الواقفون قرب الباب ، أو المتعلقون بالسلم الخارجى يتابعون النساء ، وعربات الملاكى والسيارات ، وصيحات الباعة ، والمشاجرات الصغيرة ، وضحكات عابرة ، كان الضابط يجلس بجوار السائق فى الكابينة المغطاة بشبكة واقية من الصلب، يمر الوقت ثقيلا، يتسلل الخدر الى أعضائهم، يثقل الهواء داخل اللورى، يضيق الواحد بالآخر يتمنى بعضهم أن يظهر الحاقدون ، عندئذ يغادرون اللورى، ويذيقونهم المر الذى شربوه فى الوقفة وفى التدريب ، يكفى أن يطلقهم الضابط، لكن خلال المرات التى طلعوا فيها لم يظهر أحدهم، فى أحد المرات وقفوا ثلاثة أيام متتالية فى انتظار ظهورهم، لكن الضابط سمح لهم بمغادرة اللورى واحدا، واحدا، لقضاء الحاجة، وعلى كل منهم أن يتصرف، أما فى مقهى، أو دورة مياه عامة، الطريق.. لا، كانوا يعودون الى المعسكر كالقتلى ، يرتفع شخيرهم ، يحض بعضهم أثناء نومه ، ولا يحلو للضابط أخضر العينين أن يوقظه الا بعد العودة واستغراقه فى النوم ، ويأمره بالخروج فى الهواء البارد و لف الملعب ، بينما يقف عند مدخل الاستراحة يرقبه وينهره بصوت مرتفع إذا لاحظ أى تباطؤ . كان من السهل أن يقطع المدينة جريا من أقصاها الى أدناها بدلا من الحشر فى اللورى ، برغم ذلك كان اللورى له مزايا أفضل من هذه الوقفة الكريهة كأنه عود قصب فى غيط برسيم ، لم يتأخر الأكل أبدا فى دوريات اللورى ، لكن هنا كأنهم نسوه ، لكن ، ألم يقل الضابط انه سيراقبه بدقة ؟ عند الخطر ستظهر المساعدة من حيث لا يدرى ، ربما يرصدون حركاته الآن ، قد يستنتجون من وقفته وخطواته أن فى صدره ضيق ، عندئذ .. لا يدرى ما سيفعلونه به ، فى اليوم التالى تأخر مرور عربة التعيين خمس ساعات ، آلمه الجوع خاصة أن الدنيا برد والهواء يقص الأطراف قصا ، خلت الشوارع ، واهتزت الفروع العارية للشجر القديم ، وتذكر بأسى العودة الى البيت ، ووقيد

الفرن ، ورائحة الجبن القديم ، والخبز الساخن الذى يحمل لهيب نار الفرن ، ولسعة قرن الفلفل الذى دفس زمنا طويلا فى المش ، وآه .. آه من رائحة التقلية وطشة الثوم عندما يضاف الى الملوخية ، ابتلع لعابه ، لابد أن الضابط أخضر العينين يتتبعه بالأذى ، دائما يقول له .. شكلك لا يعجبنى ، أمامه يتوقف الآن ، أوتوبيس أبيض يتوسطه خط أحمر ، وكتابة بالانجليزية ، نزلت فتاتان ، احداهما أكبر وأطول ، تحتضن حقيبة الى صدرها ، لاتزيد عن الستة عشر ، ثوبها قصير ، ركبتاها مرتويتان ريانتان ، الشبع ، الشبع يقطر من عينيها ، طلائع الفخذين الشابين ، القويين ، الناعمين ، يسرى دفأ فى جسده ، ينسى جوعه فى ظل جوع آخر ، حاد ، هفا قلبه ، انتبه الى وقوفه ، واحتمال مراقبته من مكان خفى ، نظر الى بنطلونه خجلا ، خائفا ، حاول أن يمسك البندقية بوضع أمامى ، تدخل الكبرى الى العمارة المواجهة ، وتمضى الصغرى ، الستائر مسدلة ، هدوء ، ظلال ناعمة ، راحة بال ، بعد عن الشارع والبرد والهواء ، تخلع ثيابها ولا تبقى الا فى ملابسها الداخلية ، يضوى الجسد الفتى الضاج بالأنوثة والعافية ، يقتحم الغرفة هادئا ، يبدو الخوف على وجهها ، يلقى البندقية جانبا ، تلين مقاومتها ، تبسط يدها تتحسس عضلات ظهره ، تماما كما رأى فى السينما ، مقاومة يعقبها استسلام ، تصبح فى يده كالعجينة ، آه .. وهل هذا معقول ؟ ان همه الآن اخفاء البروز اللعين الصلب ، ربما يفضحه ، لو يصل الأكل الآن ، لا توجد أكشاك قريبة ليشترى منها باكو باسكويت ، لكنهم أزالوا جميع الأكشاك من المنطقة كأحتياط واجب لأمن المبنى ، بالأمس ، اضيئت الأنوار الداخلية فى المبنى ، خلف زجاج النافذة العريضة بالطابق الأرضى رأى خيال رجل ، وخيال امرأة ، بدا واضحا انهما يعدان مائدة ، مال الرجل ثلاث مرات وقبل المرأة ، ثم اختفت الحركة ، واستمر الضوء الهادى الناعم ماذا يضم هذا المبنى ؟ من المضحك طبعا أن يسأل بواب العمارة المجاورة ، ثم انه من الخطر تبادل الحديث مع الآخرين ، ربما رصدوه ، عندئذ لا يدرى مايفعلونه به ، حفظ ملامح المبنى ، عد البلاطات المربعة مئات المرات ، خطى بقدميه ، بلاطة ، بلاطة ، ثم بلاطتين ، بلاطتين ، ثم ثلاثة ، ثلاثة ، أطلق على كل واحدة اسم بلدة من التى

يمر بها القطار ، ثم اسم شخص من البلدة ، ثم سب الضابط أخضر العينين مرة فوق كل بلاطة ، تابع العابرون وهمساتهم ، بدأ يستلم القادم من أول الطريق بعينيه ، ثم يتابعه حتى يختفى عند الناصية المؤدية الى الطريق الرئيسى بالضاحية ، عندما يرى بعض الفتيات يضع يديه فى جيوبه ، يخطو خطوة عسكرية ، يعدل وضع البندقية ، قد يتظاهر بأنه يفحص الماسورة ، أو الخزانة الاحتياطية ، العجيب انهن لم يبدين اهتماما به ، كأنه لا يقف ، ولا يرتدى هذه الحلة السوداء متعددة الجيوب ، والتى لا يرتدى مثلها رجال الشرطة ، أو فرق التصدى للمظاهرات التى عمل بها زمنا ، عد نوافذ العمارات المحيطة به ، بعد مرور أسبوع تأخرت عربة التعيين أربع وعشرين ساعة ، ولم يتم تغيير النوبة ، ولم يكن قادرا على تغيير مكانه أو الجلوس ، اتكأ بظهره عدة مرات الى السور ليريح عضلاته ، كان يخطف الراحة خطفا ، عندما شكا سخر منه الجاويش ، ماذا لو حاصره الحاقدون لمدة خمسة أيام ، يجب الا يردد مثل هذا مرة ثانية والا رفع الأمر للضابط ، فى اليوم التالى فتحت نوافذ المبنى فجأة ، أضيئت مصابيح اضافية لم يرها من قبل ، جاءت عربة نقل صغيرة ، فى اللحظة التى توقفت فيها أمام المبنى فتح الباب بدون أن يرى أى انسان خلفه ، اذن فهم يرون من بالخارج فعلا ، على أية حال لم يرتكب مخالفة ظاهرة حتى الآن ، نزل رجلان يرتديان زيا أبيض ، ضرب الأرض بقدمه ، رفع يده بتحية صارمة ، من داخل البيت خرج خواجة طويل ، يرتدى قميصا أبيض ، بدا له غريبا فى عز البرد ، مرة أخرى خبط الأرض بقدميه ، رفع المدفع ، لكن الخواجة احمر الوجه لم يلتفت اليه ، بدأ نقل طاولات خشبية فوقها أطباق مغطاة ، طعام ، أناء كبير فيه أرز ، أرز بالزبيب ، الزبيب أكثر من الأرز ، سيحكى ما شاهده لأصحابه ، بدأ توافد الضيوف ، سيارات تحمل لافتات خضراء ، رجال يرتدون أربطة عنق ، يتأبطون نسائهم ، هفا قلبه ، عاد البروز ، رفع يده بالتحية عندما مرت من أمامه ، امرأة ترتدى فستانا أحمر ، عودها سارح الى أعلى بلا مانع ، بيضاء ، مقصوصة الشعر ، الصدر شبه عار ، أبيض كطبق الفضة ، أدى التحية لكن لم يرد عليه أحد ، بدا له ذلك طبيعى ، انهم شخصيات ، اذا ضحك أحدهم له أو رد تحيته فان الدنيا ستخرب ، أصغى الى

الضحكات المتطايرة ، ابتسم فى العتمة كأنه يشارك ، هدأت الأصوات ، الملاعق احتكت بالأطباق ، ضحكة من فم ممتلىء ، لابد أنهم يطفحون ، ماذا لو أرسلوا له طبق ، لم يسأل عنه أحد ، تأخر الليل وتوالى انصرافهم ، مرت المرأة ذات الثوب الأحمر ، لمح جانب وجهها عندما مرقت سيارة المرسيدس السوداء ، خلا الطريق وقل عدد النوافذ المضيئة ، همد المبنى ، أغلق الباب الحديدى ، لم يسأل عنه أحد ، شغل خواجات ، تذكر أياما ثلاثة قضوها فى مواجهة الكلية التى اعتصم بها بعض الحاقدون ، لم يمر فى حياته أمام الجامعة ، ولو تركوه ليعود بمفرده فلن يعرف الطريق الى المعسكر ، قال الضابط ان هؤلاء الحاقدين يتعلمون ، ويقبضون ويحرمون أمثالكم من التعليم ، ثم .. لا يعجبهم ، بعد أيام ثلاثة من صد الطوب وارتداء الكمامات ، والجرى هنا وهناك ، أدركهم تعب ، نخ أحدهم كالجمل ، فى الليل اقترب منهم ثلاثة شبان ، خرجوا من الكلية ، كانوا يحملون أكياسا مليئة بالسندويتشات ، قالوا لهم كلاما رقيقا ، وعادوا من حيث جاءوا ، مرت فترة صمت ، لفهم تعب وخوف ، لكن الجوع كافر ، ان الليل يتقدم الآن وهو وحيد تماما ، فى هذه الضاحية تخف الرجل وتختفى بعد التاسعة ، ينفرد الليل بالشوارع والطرقات ، يبدد كل أثر للضجة ، يتثاءب ، لابد أن أمه نامت الآن ، يتخيل المرأة البيضاء ، لابد أنها وصلت الى بيتها منذ فترة ، تغمض عينيها ، تستسلم كالشجرة أم الشعور ، نوافذ المبنى مغلقة ، أضواء فى الحديقة لكن للظلال غلبة ، وقع خطى ، تحفز ، يبدو رجل فى نهاية الشارع ، يمشى بسرعة ، يرتدى معطفا ، يضع يديه فى جيوبه ، أهو أحدهم ، انه لا يدرى شيئا عن ملامحهم ، أو أعمارهم ، أين يتربصون ، ولا لماذا هم حاقدون ؟ يقترب الرجل ، منذ نهار بأكمله وجزء من الليل لم يتحدث مع أى انسان ، ربما لن يرى شخصا آخرا حتى صباح الغد ، يرى ملامحه ، شاب ، يرتدى نظارة طبية .. يحاذيه ..

كم الساعة من فضلك ؟

العاشرة والنصف

لم يخرج يديه من معطفه ، لم يكلف نفسه عناء النظر الى ساعته ، يخجل من

نفسه ، ربما لأن سؤاله لم يلق اهتماما ، لكن لماذا يضيق ، وجوده كله لا يلفت نظر سكان الشارع ، حتى البوابون ، وجامعوا القمامة ، وموزعو الصحف ، وباعة اللبن ، بل ان فتاتين جميلتين ، طريتين ، توقفتا بالقرب منه ، راحتا تتحدثان عن مصطفى وعن شيرى ، الأسم الأخير لرجل أو امرأة .. لا يدرى ، اتفقتا على الذهاب الى مصطفى والى شيرى ، وعلى اللقاء بهما أولا فى النادى ، افترقتا ، كأنه غير موجود ، لا يرى ولا يسمع ، ولا نفس له ولا حواس ، لكن .. لماذا يضيق ؟ هل يحلم بالحديث الى احداهن ؟ اين هو من سكان هذه الضاحية ، ليصل على سيد الخلق ، وليذكر اسم الله فى هذه الليلة ، غير انه فى عصر اليوم التالى ضاق بوقوفه ، وبشعوره المستمر انه مراقب من داخل المبنى ، يمتد الشارع باستقامة ، لو وصل الى آخره لن يبتعد عنه ، لو فوجىء بتفتيش لن يخرج عن مدى الرؤية ، كيف غفل عن ذلك ؟ انه يمشى على مهل متلفتا عند كل خطوة الى الخلف ، يمر ببيت من طوب أحمر ، وبيت تحيطه شرفة خشبية ، يقترب منه رجل يرتدى جلبابا بلديا

تسمح والله ..

يومىء الرجل مجيبا ، انه يسأل عن الطريق الذى يؤدى اليه هذا الشارع،يقول الرجل انه يؤدى الى الشارع الرئيسى ، يتساءل ، الا يوجد دكان فول وطعمية بالقرب .. ينظر اليه الرجل ، فول .. طعمية ؟ لا طبعا ، يستأنف مسيره وكأن حديثا لم يجر ، يلمح فتى يرتدى ملابس رياضية ..

تسمح والله ..

ينظر اليه الفتى بدون أن يقول نعم ، يستفسر عن اسم الشارع ، لكن الفتى يهز رأسه ثم يمضى مسرعا ، أين هؤلاء من البلدة ؟ لو سأله غريب لمشى معه حتى مقصده ، فى هذا اليوم سأل خمسة أشخاص ، لم يدع رجلا يمر الا وسأله عن الساعة ، لم يتحدث الى أى امرأة ، لكن حوالى السادسة ، والليل يكتمل ، رأى انثى قادمة على مهل ، تحمل سلة ملونة يبرز منها مضرب ، ترتدى ثوبا أبيض ،

ماذا لو سألها ؟ الطريق خال من صراخ ابن يومين ، لن ينتبه أحد ، فوجىء بها تستجيب لسؤاله ، تتوقف على مقربة منه ، شم رائحة جسدها العطر ، الفستان قصير الى درجة انه يعلق بالعقل والقلب ، ليته يراه فى الحلم ليفعل به ما يتمنى ، انها ترفع معصمها حتى تعرض الساعة للضوء الباهت ، فستانها ، آه من مقدمة ركبتيها ، طلائع دنيا هبه .. دنيا ، تقاسيمها الخفية تشى وتوحى ، رائحتها تشفى العليل ، ضرعاها ؟ صلبان يمسكان بعضهما ، تقول .. السادسة والربع ، يرفع يده ، ألف شكر ، تمضى متمهلة ، متعمدة ، مستفزة ، مهتزة ، متمايلة ، جنس آخر غير نساء البلدة ألم تتعمد المشى البطىء الم تغمس عينيها فى عينيه ، ثم ماذا تمشى بمفردها والطريق موحش والليل نازل ؟ نساء المدن يظهرن مالا يتوقع ، سمع عن اعجابهن بفحولة أبناء الأرياف لبرود رجال الحضر ، وقلة نخوتهم ، وضعف شهوتهم ، انه يود لو استعاد لحظة وقوفها ، يحدد المكان الذى وقفت فيه والفراغ الذى امتلأ بطلوتها ، لو تعود ، لكن الليل يستفحل ، والوحشة تغمره ، عند الفجر يصغى الى صفارة القطار البعيد ويدهمه أسى ثم يجىء آذان الفجر ، يرقب المصابيح تضاء خلف النوافذ ، لابد أن بعض الرجال والنساء يقمن للاستحمام بعد الهز واللز ، يتزايد شعوره بالبرد عندما يرى اختفاء الأضواء من النوافذ ، يقول لنفسه ، انهم يذهبون الى النوم ، الى الأغطية ، وهو باق ، لا جدران تلمه ، ولا سقف يستره ، ويتزايد أيضا عندما يشتعل مصباح فى منتصف الليل أو قرب الفجر ثم ينطفى من جديد ، يتخيل دفأ الحجرات التى لا يصفر فيها الهواء ، والتى لاتبدد نفس بنى آدم والنفس مدفىء الأوصال ، فى الصباح المبكر يفتح الباب الحديدى فجأة ، تظهر سيارة سوداء ، من الجراج ، تمرق أمامه ، لا يستطيع أن يلمح ركابها ، لكنه يؤدى التحية ، يحاول أن يصلب جسده المرهق ، انه لايرى سكان المبنى حتى عندما يخرجون ، يسأل كل من يمر أمامه عن الساعة ، يمضى النهار ، لم يسأل أحد عنه ، هل نسوه ؟ يدق قلبه عند اقتراب الموعد ، لو عادت اليه ، لو وقفت لحظات لامدته بزاد للحلم عندما يغفو ، اجابه أحد المارة بانها السابعة والربع ، لم تظهر ، تقترب سيارة من المدخل ، يفتح الباب تلقائيا ، يرفع يده بالتحية ، لايدرى من يركب العربة ، لكن صبرا ، انها تظهر . تتخلق عند نهاية

الشارع ، المشى اللين ، لكن .. هى .. لا .. ليست هى ، هل يذكر ملامحها ، انه لم يرها الا لثوان ، ماذا يجرى لو فاجأه الضابط ، أخضر العينين الذى أذاقه المر لأن شكله لا يعجبه ، ماذا لو فاجأه الحاقدون ؟ ربنا يستر .. انها تقترب .. لا .. ليست هى ، تلك أقصر طولا وأكثر امتلاءا ، يسأل عن الساعة ، لكنها لاترد ، يخيب أمله ، يدركه خجل ، قفاه يسخن ، مع ذلك استدار ليشيع النظر بالمؤخرة والاهتزاز المتبادل ، آه .. انها تقف ، تقف بعد نهاية السور ، يلمح بواب العمارة المواجهة ، لكنه على الرصيف المقابل ، لن يتجه اليها فورا ، انه يمسك المدفع بشكل لافت للنظر ، يفرد طوله ، تعب يسرى فى ظهره ، تنظر ناحيته ، يتبدد التعب ، والجوع ،، وغموض المبنى ، وتحياته التى لا ترد ، والخرس من الحاقدين ، واضطهاد أخضر العينين ولف الملعب والحبس الانفرادى ، ينصهر هذا كله فى نار تقيد داخل جسده ، يتجه ناحيتها ، لن يقترب منها حتى لا يلفت نظر البواب الرذل الذى لازال يقف ، ينادى بصوت مبحوح مبلول باللعاب ..

ياجميل ..

أليس هذا مايقال فى موقف كهذا ، لماذا يرتعش ، لماذا يرتجف ، ليثبت ، عندما تلاغيه سيزول ارتباكه ..

اسمع ياجميل ..

ينتفض ، يد فوق كتفه ، يلتفت ، تتطاير نجوم ويسود ظلام ، صفعة ، تتقشع غشاوة ، رجل متوسط القامة ، مدكوك البدن .

ارنى بطاقتك ..

يرفع يديه حتى يتقى الصفع ، تسقط الخزانة الاحتياطية ، يمسك الرجل ياقته ، يجذبه ، يضربه بالدماغ ، يسيل دم ،

طلع بطاقتك

سامحنى يأفندى ..

أفندى .. أفندى ياقليل الأدب .. شوف من يكلمك ..